

٣٢١٥

تمام الطلب بتسليم مخطوطة منه لجنه المصاحف
المشرف علي مريزن عسيري

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

ساعات خارجي

١٤١٥/٧/١٥

د/ نواز لوي

ساعات داخل

د/ شاد سنوك

الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي

١٤٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ م - ١٥١٧ م

رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية

د/ محمد علي خضير
د/ نواز لوي

إعداد

خالد محسن حسن الجابري

إشراف

الأستاذ الدكتور / مريزن سعيد مريزن عسيري

١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م

الجزء الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير بعنوان الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،
وبعد :

حظيت الدولة المملوكية في العصر الحديث بدراسات عدة لأحوالها من قبل الكثير من الباحثين ، إلا أن أغلبها اقتصر على بلاد الشام ومصر لكونها مسيطرة عليها بصورة مباشرة ، أما بلاد الحجاز فقد ندرت الدراسات حولها في هذا العصر خاصة في المجال الحضاري رغم مكانتها السامية في قلوب المسلمين عامة .
ومن هنا تولدت لدى الباحث الدراسة لهذا المجال لتكون موضوعاً لنيل درجة الماجستير وهي بعنوان « الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي من الفترة ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م » .

أما البحث فقد اشتمل على مقدمة ودراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ، وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .
أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع والسبب في اختياره ، ثم دراسة تحليلية لأهم المصادر المخطوطة والمطبوعة التي اعتمد عليها البحث ، أما التمهيد فقد اشتمل على مايلي :

أولاً : الحجاز تحديده وأهميته .
ثانياً : الحياة العامة في الحجاز من النواحي السياسية والإقتصادية والإجتماعية .
ثم الفصل الأول الذي تناول مظاهر الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة والتي تمثلت فيما يلي :

أولاً : اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية :
ثانياً : اهتمام بعض سلاطين المماليك وأمراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز .
ثالثاً : دور العلماء والعالمات والأعيان في تنشيط الحركة العلمية والتي اشتملت على المجاورين ، الأسر العلمية ، دور العلماء في المدن الحجازية ، دور المرأة في الحركة العلمية بالحجاز .
رابعاً : العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى « الرحلات العلمية »
خامساً : الوراق والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية .
سادساً : الكتب والمكتبات .

بينما الفصل الثاني تناول مراكز التعليم في الحجاز والتي اشتملت على مايلي :

أولاً : الكتاتيب . ثانياً : المساجد . ثالثاً : دور المدارس . رابعاً : دور الأربطة .
ثم الفصل الثالث الذي تناول العلماء وإنتاجهم العلمي حيث اشتمل على الآتي :

أولاً : الدراسات الشرعية . ثانياً : الدراسات الأدبية واللغوية .
ثالثاً : الدراسات الإجتماعية . رابعاً : الدراسات العقلية والتطبيقية .

أما الخاتمة : فقد تناولت الدراسة أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ومن أهمها :

- ١ - ظهور الأسر العلمية المكينة والمدنية التي توارثت الوظائف الدينية والعلمية خلال فترة البحث .
- ٢ - تطور الدراسات التاريخية في تلك الفترة ومكانتها عند المؤرخين .
- ٣ - أظهرت الدراسة أن العصر المملوكي لم يكن عصر ظلام وضآله علمية كما يتوهم الكثير من المؤرخين .
- ٤ - أوضحت الدراسة جانباً معيناً لم يتطرق إليه الباحثون ، وهو المدن الحجازية الأخرى ، وقراها مثل الطائف وجده وينبع وقرى مكة المكرمة .

فأرجو من الله تعالى التوفيق والقبول إنه ولي ذلك وهو القادر عليه والحمد لله رب العالمين .

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
د. محمد بن صالح المنجد

المشرف على الرسالة
د / مريزن سعيد عسيري

الباحث
خالد محسن حسان الجابري

١٤١٥ / ٧ / ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعى بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين. أما بعد،

فمعروف أن منطقة الحرمين الشريفين كانت منذ فجر الإسلام ولا تزال منطقة جذب للمسلمين تهوي إليها قلوبهم للحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول الكريم ﷺ، وكان هذا تحقيقاً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام حينما دعى ربه قائلاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْتُ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنْي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ خَيْرُ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١). وجاءت استجابة الحق تبارك وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فما لبثت هذه البقاع الطاهرة إلا يسيراً حتى امتلأت أرجاؤها بالمسلمين الذين باتوا يأتون إليها من كل حذب وصوب.

تلك القدسية الدينية كانت سبباً مباشراً في ازدهار الحركة العلمية، فهذا موسم الحج مكان للقاء العلماء من كافة أقطار العالم الإسلامي يتدارسون فيه جوانب المعرفة وما يعرض من أمور الواقع ويأخذ بعضهم عن البعض الحديث والتفسير والفقه وشتى أنواع المعرفة، وأهم من ذلك كله هجرة الكثير من المسلمين من شتى بقاع الأرض إلى المدينتين المقدستين نتيجة ظروف اقتصادية أو دينية أو سياسية، فهؤلاء المهاجرين كانوا أصحاب ثقافات وعلوم في بلدانهم وأصبحوا بعد ذلك جزءاً من مجتمع الحجاز، فكان لهم باع طويل في تنشيط الحركة العلمية فيه، ونتيجة لذلك نشأت المدارس وكثر طلاب العلم والمعرفة.

وقد قدم سلاطين الممالك وغيرهم من سلاطين وأمراء البلدان الأخرى المساعدات والصدقات لهؤلاء العلماء والمجاورين ورواد الأريطة والزوايا والمدرسين، والقضاة والخطباء، وكان ذلك سبباً مهماً من أسباب ازدهار الحركة العلمية.

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٥، آية ٣٦، آية ٣٧.

واستتبع وجود العلماء وجود المدارس وتطورها، وكان كثير من تلاميذ تلك المدارس شباناً قادمين في موسم الحج، وقلما خلا عام من أعوام القرون الثلاثة، السابع، والثامن، والتاسع من الهجرة من عالم شهير في الحرمين الشريفين يأخذ عنه كل راغب في العلم والمعرفة ويحذون حذوه في الدراسة والإطلاع.

أما أسباب اختياري لهذا الموضوع:

فمنذ السنة المنهجية وأنا أفكر في دراسة موضوع في الحضارة والنظم الإسلامية، وبعد الإطلاع والدراسة توصلت إلى أن الجانب العلمي في الحجاز خلال العصر المملوكي لم ينل الدراسة الكافية، فعقدت العزم واستخرت الله في ذلك، وكان هناك عدة عوامل دفعيني للكتابة في هذا الموضوع منها:

١ - مكانة الحجاز الدينية، فهي تحتل مكانة سامية في قلوب المسلمين جميعاً لما تضمه أرضه الطيبة من مقدسات إسلامية.

٢ - لا يجد الباحث بحثاً تاريخياً مفصلاً عن الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، وإنما نجد مؤلفات على كثرتها يعتورها النقص ويعوزها العمق والاستقصاء.

٣ - كما شجعني على اختيار هذا الموضوع، توفر المصادر الأصلية لهذا البحث ولعلماء عاصروا تلك الفترة، أمثال الفاسي، وبنو فهد، وابن حجر، والسخاوي.

٤ - أن كل موضوع محدد غير متشعب يستطيع الباحث أن يتمكن من دراسته وحصر موضوعاته حصراً يقرب من الإجابة والشمول والإحاطة وإيفاء الموضوع حقه، سيما وأن الأبحاث في الحضارة والنظم الإسلامية خاصة أحوج ما تكون إلى الحصر والتخصص.

٥ - نشأة الحركة العلمية في هذا العصر، ونقصد من هذا ازدهار علوم ومعارف متنوعة، كالحديث، والفقه، والتفسير، واللغة، والأدب، والتاريخ إلى جانب الكثير من العلوم، وهذا ما ستكشف عنه الدراسة إن شاء الله.

٦ - رغبتني الكامنة لإثبات أن العصر المملوكي لم يكن عصر ظلام أو ضالة علمية، كما يتوهم البعض، بل هو عصر زاخر بأمهات الكتب ويحلو لبعض المؤرخين

المعاصرين أن يسميه عصر الموسوعات العلمية لما قدمه العصر المملوكي لنا من تراث علمي في مختلف التخصصات، على أن هذا العمل الجليل الذي قام به علماء مصر ليس خدمة لتراثها فحسب، بل للعالم الإسلامي كله.

٧ - حظيت الدولة المملوكية في العصر الحديث بدراسات عدة لأحوالها من قبل الكثير من الباحثين، وألفت كتب عديدة في بيان مظاهر حياتها التاريخية والسياسية، والاجتماعية، والعلمية، إلا أن جُلَّ هذه الأبحاث لم تتعد حدود بلاد الشام ومصر، حيث كانت لتلك الدولة آثار بارزة وأعمال جليلة بها، وكانت لهم سلطة مباشرة عليها.

أما بالنسبة لبلاد الحجاز عامة، ومكة والمدينة على وجه الخصوص، فقد ندرت الدراسات حولها في هذا العصر، وقلت العناية بالتعريف بأحوالها وأوضاعها في عصر الماليك رغم مكانتها التي لاتساميها مكانة في قلوب جميع المسلمين، وبقيت هذه المنطقة مجهولة من كافة نواحيها لدى كثير من المثقفين، ومن أجل ذلك كان لزاماً على الباحثين وطلاب العلم أن يوجهوا عنايتهم لمعرفة النشاط العلمي وغير العلمي الذي مرت بهما أحب البلدان إلى قلوبهم.

ومن بين الصعوبات التي واجهت هذا البحث، فقدان كثير من مصنفات أهل مكة والمدينة وضياعها، فهناك كتب تاريخية فقدت منذ زمن طويل، لو وجدت لذلت الكثير من الصعاب، مثل مؤلفات ابن فهد في الأسر المكية.

كما أن الكثرة الهائلة لأسماء العلماء والمفكرين في هذا العصر، والمثبتة في كثير من مصادر التراجم، ومشاركاتهم في كثير من العلوم بحكم موسوعية أغلبهم، فكان من الصعوبة بمكان تبين نشاط كل واحد منهم في الفنون المعرفية التي شاركوا فيها، وذلك استنفذ من الباحث جهداً كبيراً.

وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة ودراسة تحليلية لأهم مصادر البحث وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع والسبب الباعث على اختياره، ثم دراسة تحليلية لأهم المصادر المخطوطة والمطبوعة التي اعتمد عليها البحث، ثم التمهيد ويشتمل على :

أولاً: الحجاز - نخبه وأهميته:

تناولت فيه موقع الحجاز وحدوده وأهميته منذ القدم بشكل عام، ثم أهميته بشكل خاص بالنسبة للمماليك، حيث أعطيت دراسة وافية لجميع المدن المهمة في الحجاز وأهميتها الدينية والسياسية والاقتصادية.

ثانياً: الحياة العامة في الحجاز من النواحي:

أ- السياسية: حيث تعرضت في هذه المبحث للحالة السياسية في الحجاز، والصراع القائم بين الأشراف، ومنافسة آل رسول لسلطين المماليك، وما وقع في تلك الفترة من نزاعات في جميع مدن الحجاز.

ب- الاجتماعية: وتحدثت فيه عن المجتمع الحجازي في تلك الفترة، وقدمت وصفاً عاماً للحياة الاجتماعية في كافة مدن الحجاز، وأهم المنشآت التي قام بتعميرها سلاطين المماليك وغيرهم من أسبله وعيون وآبار.

ج- الإقتصادية: وبيئت فيه موارد مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلاقتهم التجارية الداخلية والخارجية، والأسواق المنتظمة في الحرمين الشريفين، والمعاملات المالية لأهل الحجاز، كما تعرضت فيه لأوقاف السلاطين والأمراء وغيرهم من المحسنين، وحالات الرخاء والشدة، والمجاعات التي أصابت الحرمين الشريفين في فترة البحث، كما تعرضت كذلك للحياة الإقتصادية في مدن الحجاز الأخرى، مثل: جدة، الطائف، وينبع.

وفي الفصل الأول تناولت «مظاهر الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة» ويشتمل على:

أولاً: اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية:

وبيئت فيه اهتمام أمراء مكة بشكل خاص بالحركة العلمية في الحجاز ومشاركتهم فيها، وإنشاءاتهم العلمية، ورحلاتهم لطلب العلم، وبعض العلماء الكبار الذين تلقوا عنهم العلم، وثناء العلماء عليهم، ومشاركة الأمراء للعلماء في أفراحهم واتراحهم، كما أشرنا إلى بعض الأمراء الذين كانت لهم مواقف سلبية وغير مشرفة مع العلماء.

ثانياً: اهتمام بعض سلاطين الماليك وأهراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز:

وتحدثت فيه عن مشاركة سلاطين الماليك في العلم وتشجيعهم للعلماء، وإنشاءاتهم التعليمية في الحجاز، ومشاركة أمراء الماليك في هذه الإنشاءات وتفوقهم فيها، كما تعرضت كذلك لسلاطين بني رسول ومؤلفاتهم ومشاركاتهم العلمية، ومنافستهم للماليك في إنشاء كثير من المدارس في مكة، واهتمام بعض بنو طاهر بالحركة العلمية في الحجاز، إضافة إلى إنشاءات السلاطين والأمراء الهنود في الحرمين الشريفين المتمثلة في المدارس والأربطة في مكة والمدينة.

ثالثاً: دور العلماء والعالمات والأعيان و العامة في تنشيط الحركة العلمية :

ويشتمل على:

أ - المجاورون: وأوردت فيه بعض النماذج لهؤلاء العلماء المجاورين، ومشاركاتهم في كافة فنون المعرفة، وتصنيفهم لكثير من الكتب في ظلال الحرمين الشريفين، ومشاركة بعض أهل الحرف في الحركة العلمية في الحجاز، ودور بعض المجاورين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقدير العلماء بعضهم للبعض في حل بعض المسائل الفقهية، كما تعرضت فيه لبعض إنشاءات التجار والأعيان في الحرمين الشريفين.

ب- الأسر العلمية: وتناولت فيها الأسر المكية أولاً، ثم الأسر المدنية، حيث أشرت إلى أصول هذه الأسر وأنسابهم ودورهم في الحركة العلمية.

جـ- دور العلماء في المدن الحجازية: وذكرت في هذا المبحث: دور العلماء في مدن الحجاز مثل: جدة، الطائف، بلاد بجيلة، قرى مكة المكرمة، وينبع، وما كان في هذه المدن من حركة علمية.

د- دور المرأة ومكانتها في الحركة العلمية بالحجاز: في هذا المبحث القصير، أوردت نماذج من نساء الحرمين، ومشاركتهن في العلم وإنشاءاتهن للأربطة والكتاتيب، وبعض من شاركت منهن في التأليف، والإجازات التي حصلن عليها من كبار العلماء في العالم الإسلامي.

رابعاً: العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى «الرحلات العلمية»:

وتقصيت في هذا المبحث الرحلات التي قام بها علماء الحجاز، وأهمية الرحلة في طلب العلم، ورحلات العلماء إلى الحرمين الشريفين، ودور بعض العلماء في البلدان البعيدة مثل بلاد التكرور والسودان وغيرهما، ومشاركة بعض العلماء في التدريس في مدارس مصر واليمن، ورحلات البعض إلى بلاد الهند وتكريم السلاطين لهم.

خامساً: الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية:

وقد أفردت هذا المبحث لدراسة هذه الحرفة الرائجة ومن خدم فيها من المتكسبين بالنسخ، والذين كانوا ينسخون لأنفسهم ولغيرهم من العلماء خدمة لهم وطلباً للرزق وأماكن النساخة في الحرمين، كما تعرضت لتجارة الكتب وسوقها الرائجة في ذلك العصر.

سادساً: الكتب والمكتبات:

وتحدثت فيه عن أهمية الكتب والمكتبات الخاصة بالحرمين الشريفين، والإعارة ووقف الكتب، وخزائن الكتب في المساجد والأربطة والمدارس.

أما الفصل الثاني فكان الحديث فيه عن مراكز التعليم في الحجاز ويشتمل على:

أولاً: الكتاتيب:

وقمت بتقسيمها إلى كتاتيب خاصة، وكتاتيب عامة، وتعرضت إلى دور المؤدبين في الحرمين الشريفين، وما كان يتلقاه المكتبيين والتلامذة من فكر وعلوم بالحرمين الشريفين.

ثانياً: المساجد:

تحدثت فيه عن الحرمين الشريفين باعتبارهما مركز الثقل في الحركة العلمية، ولعدم وجود مساجد أخرى غير المسجد الحرام والمسجد النبوي كانت تقام فيها حلقات العلم، حيث قمت بتقسيم النشاط العلمي بهما إلى قسمين:

الأول: حلقات العلم في الحرمين الشريفين، وتشمل هذه الحلقات علوم الشريعة واللغة والعلوم العقلية.

الثاني: الدروس المقررة المخصصة التي قررها السلاطين والأمراء وغيرهم في الحرمين الشريفين.

ثالثاً: دور المدارس في الحرمين الشريفين:

وقد تطرقت في هذا المبحث لكثير من مدارس مكة والمدينة، موضحاً ماكان لها من أثر في تنشيط الحركة العلمية ، ومبيناً الشروط والمسائل المالية والإدارية والتنظيمية لهذه المدارس، وكيف كانت تتم فيها العملية التعليمية، ومناهج الدراسة، والمفردات العلمية، والأساتذة، والتلامذة.

رابعاً: دور الأربطة:

وذكرت في هذا المبحث كثيراً من الأربطة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وما تقدمه هذه الأربطة من خدمات ومعونات جلية لساكنيها، والدور الذي قامت به في تنشيط الحركة العلمية.

أما الفصل الثالث: العلماء والإنتاج العلمي: فإنه يشتمل على:

أولاً: الدراسات الشرعية:

ثانياً: الدراسات الأدبية واللغوية:

ثالثاً: الدراسات الاجتماعية:

رابعاً: الدراسات العقلية و التطبيقية :

وهذا الفصل يعتبر من أهم فصول هذا البحث، إذ أنه يمثل المحصلة النهائية والصورة الواقعية لنشاط الحركة العلمية في الحجاز، فقد تم فيه استعراض ثمرة الإنتاج العلمي المتمثل في بروز الكثير من علماء الفترة في العالم الإسلامي، لما قدموه من فكر جليل ودراسات رائعة لاسيما في العلوم الشرعية، وعلوم العربية والأدب، والتاريخ والتراجم، متقصياً في ذلك ذكر مصنفاتهم ورسائلهم العلمية، وما كان لها من أثر بالغ في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز خاصة والعالم الإسلامي عامة.

دراسة تمهيلية لأهم مصادر البحث

لاشك أن لكل عمل علمي طبيعته، التي تفرضها وجهته الدراسية وميدان العمل، وبالتالي فإن لكل موضوع مصادر ومنابع معينة ومحددة تملئها طبيعة ذلك الموضوع، وموضوع دراسة الحركة العلمية في الدولة الإسلامية عامة تفرض على الباحث أن يلتقي بالعديد من المصادر المتخصصة في التاريخ والسياسة والاقتصاد والإجتمع والفكر بكافة فروعها المعرفية.

ومن فضل الله تعالى أن الفترة التي أتت على دراسة الحركة العلمية في الحجاز كانت فترة نماء وازدهار للحركة العلمية لاسيما في جانبها التاريخي، فقد أبرزت الكثير من المؤرخين الأفاضل، الذين تركوا لنا صورة رائعة لمظاهر الحركة الفكرية والنشاط العلمي في الحجاز إبان العصر المملوكي، ما بين تراجم للعلماء والمفكرين وما خلفوه من علم وفكر، ودراسات سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية، سلطت أضواء جيدة على مدى تفاعل الحركة العلمية في الحجاز بكافة جوانب الحياة المختلفة.

والمؤرخون - سجل التراث - في هذا العصر كانت أكثر مؤلفاتهم حولية، تبدأ بسنة معينة وتنتهي عادة بوفاة المؤلف، وهذا ما نجده في الموسوعات التاريخية في العصر المملوكي، فقد ظهرت مؤلفات عظيمة كانت تختص دائماً بمصر ودورها السياسي والريادي في العالم العربي والإسلامي في ذلك الوقت، ولكن هؤلاء المؤرخين لم ينسوا في خضم الأحداث المعاصرة لتلك الفترة أن يشيروا ويتطرقوا لكافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية لبلاد الحجاز، وذلك لأن كثيراً من هؤلاء العلماء المؤرخين كانوا من ضمن الذين قاموا بزيارة الحرمين الشريفين، أو جاؤوا بهما.

هذا بالإضافة إلى كتب التاريخ العام أو المحلي للحرمين الشريفين، وكتب التراجم وطبقات الرجال والوفيات في مجالاتها وتخصصاتها المختلفة لعلماء الشريعة، ورجال اللغة والأدب، أو تراجم المؤرخين والجغرافيين، ورجال التربية والعلوم العقلية وغيرها من العلوم.

كما أن تعدد المواضيع المختلفة التي تطرقت لها هذه الدراسة أدت إلى تنوع مصادر البحث وتعددتها وهياً إمكانية الاستفادة منها جميعاً، مما يجعل من الصعوبة بمكان أمر تناولها جميعاً بالتفصيل، إنما نحاول هنا الإشارة إلى أهمها والتي تعتبر الركائز الأساسية التي اعتمد عليها البحث، لاسيما تلك المصادر المعاصرة لفترة البحث، والتي أفادت في دراسة الحياة العلمية في الحجاز في العصر المملوكي.

بالإضافة إلى بعض المصادر التي لاغنى للباحث عنها، حيث إنها زودت البحث بمعلومات نادرة أفادت في جوانب معينة منه، وكانت تمثل نماذج للإنتاج العلمي في الكتب والمصنفات المتخصصة لعلماء العصر في ميادين العلوم المختلفة.

أولاً: المخطوطات:

يعد كتاب «الدر الكمين بذيّل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» للنجم عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)*، أحد المخطوطات المهمة التي استفدت منها في فصول البحث، لما حوته من معلومات عن الحياة الثقافية والحركة العلمية في مكة المكرمة، وتكمن أهميته في أنه مكمل لكتاب «العقد الثمين» للفاسي، وقد أورد فيه كثيراً من الكتب التي ألفها العلماء في ذلك العصر، كما تناول فيه دور المرأة العلمي في مكة المكرمة، وتطرق لكثير من المدارس والأربطة التي كان لها دور في الحركة العلمية بمكة.

أما كتاب «نصيحة المشاور وتسليية المجاور» لعبدالله بن أبي عبدالله بن فرحون (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، فيعتبر أحد أهم المصادر المخطوطة التي أفادت البحث، وقدمت لنا مادة علمية عن العلماء في الحرمين الشريفين، خاصة المدينة المنورة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن مؤلفها من أبناء أسرة ابن فرحون الشهيرة بالمدينة المنورة، وقد تحدث فيه عن

* إن جميع المصادر التي سنوردها هنا تعتبر من أهم كتب الإنتاج العلمي لفترة البحث، ولقد فصلنا هناك بالكامل عن كل واحد منها، وما تجدر الإشارة إليه أن الغالبية العظمى من الباحثين لم يتنبهوا إلى أهمية عدد من المخطوطات التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة ومالها من دور بالغ في تكوين هيكل البحث سواء أكان ذلك من الناحية العلمية أو ما يتصل بها، أو من الناحية التاريخية أو السياسية أو الإقتصادية بالنسبة للحجاز في هذه الفترة، بل إن بعض المخطوطات على أهميتها القصوى، فإنني لم أجد أحد منهم تنبه إليها.

المكانة التي تمتع بها العلماء في عصره، كما أشار كذلك إلى كثير من مؤلفاتهم ومشاركاتهم في حلقات العلم بالمسجد النبوي.

وكتاب «بلوغ القرى في ذيل اتحاف الوري بأخبار أم القرى» لعزالدين بن عمر بن فهد (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وهو كتاب مخطوط ذيل به على كتاب والده النجم عمر بن فهد، ورتب الكتاب على حوادث السنين، مع إطالة في ذكر بعض الحوادث، وهذا الكتاب مهم جداً، وذلك لأن العز بن فهد كان يعتمد على مشاهداته للأحداث وتدوينه للمعلومات عن مكة، وما طرأ عليها من إنشاءات، واستفدت منه في معرفة المدارس والأريطة التي استمرت إلى زمنه، كما وضع بعض الأحداث السياسية والاقتصادية لمدينة جدة وما وقع فيها من حروب.

كذلك أستفاد البحث من كتاب «الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة» ولايزال مخطوطاً لتقي الدين الفاسي (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، الذي وثقت منه كثيراً من المعلومات الخاصة بإنشاءات المدارس والأريطة في الحرمين الشريفين.

كما استفدت كثيراً من مخطوط «الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية» لمحمد بن علي بن أحمد بن طولون الدمشقي (٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، والذي ضم كثيراً من أتباع المذهب الحنفي، من أمراء وعلماء وأعيان وغيرهم،

وهناك أيضاً كتاب «معجم ابن فهد» للنجم عمر بن فهد (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، أحد المخطوطات المهمة التي ترجمت لعلماء الحرمين الشريفين وبعض البلدان الأخرى، لأنها حوت شيوخ النجم بن فهد ومؤلفاتهم العلمية في الحرمين الشريفين.

بالإضافة إلى كتاب «تاريخ المحمدين» لمؤلف مجهول، ربما يعود إلى أحد علماء القرن التاسع الهجري، وذلك لأنه أورد أسماء كثير من العلماء ومؤلفاتهم في ذلك القرن، والجدير بالذكر أن هذه المصادر الثلاثة الأخيرة لم يستفد منها أحد من الباحثين على الرغم من أهميتها البالغة كمصادر لتلك الفترة التي لاغنى للباحثين عنها.

أما الأول فقد بينت مدى أهميته، وأما الثاني فإن كثيراً من الباحثين لم يعيروه ذلك الإهتمام اعتقاداً منهم بأنه المعجم الذي حققه الأستاذ محمد الزاهي، وهو خلاف ذلك، وأما الثالث فلأن مؤلفه مجهول فقد تركه الكثير من الباحثين.

وهناك أيضاً كتاب «تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام» لمحمد بن سالم الصباغ (ت ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، وعلى الرغم من تأخر هذا المخطوط من الناحية الزمنية، إلا أن البحث إستقى منه معلومات تخص المدارس والأربطة، وإن كان معظمها منقول عن الفاسي، ولكنه بين بعض هذه الآثار التي بقيت بعد الفاسي بمدة قصيرة.

- المصادر المطبوعة:

ثانياً: المصادر المكية والمدنية:

ومنها كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لمؤلفه تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، ويقع في ثمانية أجزاء، سار فيه المؤلف على الترتيب الهجائي للأسماء، عدا من إسمه محمد أو أحمد، فإنهما تصدرتا أجزاءه ويعد هذا الكتاب موسوعة كبرى لتاريخ مكة وعلمائها ومن سكنها أو جاور بها، ولقد خدمني هذا الكتاب خدمة كبيرة، فقد استقيت منه جانباً كبيراً من المعلومات المتعلقة بموضوع بحثي، فكان مصدري الأساسي لاسيما فيما يتعلق بالنواحي السياسية والحياة العلمية والاجتماعية، وأحوال المجاورين بمكة، كما أنه أفرد جزءاً خاصاً لنساء مكة، استفدت منه كثيراً في معرفة دور المرأة العلمي في الحرمين الشريفين، كما أنه أورد كثيراً من التراجم في بحوث قصيرة جرت الاستفادة منها، خاصة أثناء ذكره لأمراء مكة وسلاطين بني رسول وإنشاءاتهم في الحرمين الشريفين، لذا فإن هذا الكتاب يعد من أهم المصادر التي أفادت البحث كثيراً، فالفاسي أورد كثيراً من أسماء طبقات المجتمع في عصور مختلفة انتهت بعصره الذي عاش فيه.

أما كتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» وهو للتقي الفاسي أيضاً، ويقع في جزأين فقد استفدت منه كثيراً في توضيح المعلومات التي لم يوردها في كتابه «العقد الثمين» خاصة المؤسسات التعليمية من مدارس وأربطة وغيرها، إضافة إلى ذكره للكوارث الطبيعية والأحداث المختلفة التي تعرضت لها مكة، كالأمطار والسيول والأوبئة، والإنشاءات والعمائر التي قام بها السلاطين والأمرء وغيرهم في مكة المكرمة، وجرت الاستفادة منه في الناحية الإقتصادية والاجتماعية من التمهيد لهذا البحث، وكذلك المدارس والأربطة في الفصل الثاني من هذا البحث.

وللفاسي أيضاً «ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد»، ويتضمن أسماء المحمدين من رواة السنن أو المسانيد والمعاجم وبعض المشيخات، والكتب الشرعية المؤلفة التي ألفها العلماء في ذلك العصر، وتناول كذلك في تراجم العلماء ما كان يقرأ في الحرم المكي الشريف من كتب الحديث والأجزاء.

ويعد كتاب «إتحاف الوري بأخبار أم القرى» للنجم عمر بن فهد (ت ١٢٨٥هـ / ١٤٨٠م) ويقع في أربعة أجزاء موسوعة تاريخية للأحداث التي مرت بها مكة المكرمة منذ عهد الرسول ﷺ حتى عصر المؤلف، مرتبة ترتيباً زمنياً، وقد أورد فيه كثيراً من المعلومات مع التركيز على أخبار الحج، ومن قدم مكة حاجاً من الأعيان والعلماء وأخبار أمراء الحج، والنفقات التي أنفقت في مكة، واستفدت منه في استيفاء أخبار أهل مكة، وأحوالهم الاجتماعية، والكوارث الطبيعية والمبادلات التجارية والمراكب، وأخبار الأسعار، وأخبار جدة وما حصل فيها من تعيين لنوابها والحياة الإقتصادية بها، إضافة إلى إشارات بسيطة عن تواريخ إنشاءات المدارس والأرطة بمكة، وعن خزائن الكتب بالمسجد الحرام.

وله أيضاً كتاب «معجم الشيوخ» الذي رتبه على حروف المعجم، وقد أفادني هذا الكتاب بشكل كبير فيما يتعلق بالعلوم التي راجت في مكة وحركة التأليف فيها، وتكمن أهميته في التراجم الوافية لبعض علماء المدن الإسلامية، كما يعتبر سجلاً مهماً للمدارس ونظامها الداخلي في عهده، وأورد لنا كثيراً من المؤلفات والكتب التي ألفها علماء الحجاز وقاموا بتدريسها في الحرمين الشريفين.

أما كتاب «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» تصنيف محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)، فيعد أحد المصادر المهمة لتاريخ المدينة المنورة، وقد قصر السخاوي تراجمه في هذا الكتاب على أهل المدينة المنورة فقط، ومن سكنها من الغرباء ولو لسنة واحدة، بشرط أن يكون قد درّس فيها، أو حدث أو أفتى، سالكاً في ذلك طريقة سابقه الفاسي في كتابه «العقد الثمين» وهدف من وراء ذلك سد الفراغ الموجود في تاريخ هذه المدينة، إذ كان كما يقول لم يجد مؤلفاً يشفي الغليل في تاريخ هذه المدينة.

ولما كان السخاوي نفسه ممن جاور فترات عديدة، فقد التقى خلالها بالعديد من العلماء الأفاضل، الأمر الذي مكنه من تقديم صورة حقيقية عن الحياة العلمية في المدينة المنورة ومعلومات موثقة عن علمائها، وتكمن أهمية هذا الكتاب، في أنه ألف في المدينة المنورة أثناء مجاورة صاحبه، وقد جرت الإفادة منه بشكل رئيسي في جميع فصول البحث الرئيسية، حيث تعرض لإنشاءات السلاطين والأمراء في المدينة المنورة .. كما تعرض لأول مرة من خلال كتابه للأسر المشهورة في المدينة المنورة، ودور العلماء في المسجد النبوي، بالإضافة إلى الإنتاج العلمي لكافة فروع في تلك المدينة المقدسة.

وكتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» لمؤلفه علي بن أحمد السمهودي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، مؤرخ المدينة المنورة المشهور وأحد العلماء المدرسين بها، وقد أفاد هذا الكتاب في البحث الخاص بالمدارس التي أنشأها السلطان قايتباي في الحرمين الشريفين، وخزائن الكتب في المسجد النبوي.

وهناك أيضاً كتاب «التعريف بما أنست من معالم دار الهجرة» لمحمد بن أحمد المطري (٧٤١هـ / ١٣٤٠م)، وكتاب «تحقيق النصر بتلخيص معالم دار الهجرة» لزين الدين أبي بكر بن حسين المراغي (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م)، وكلاهما أشارا إلى المدارس التي أنشئت في المدينة المنورة، والتي لم يتعرض لها مؤرخوا ذلك العصر.

وكتاب «المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة» لعبدالله مرداد أبو الخير (ت ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م)، وإن كان هذا المصدر من المصادر المتأخرة زمنياً، إلا أنه ضمن معلومات جيدة عن بعض الأسر المكية وإنتاجهم العلمي.

ثالثاً: المصادر المملوكية:

ومن هنا كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، فقد أعطانا وصفاً تفصيلياً للحياة السياسية والأعمال والإنشاءات التي قام بها سلاطين المماليك في الحجاز، وانتفعت به في استقاء المعلومات التي تخص العلاقات السياسية بين السلاطين وأمراء الحجاز، كما أوضح أهمية مدينة جدة الإقتصادية بالنسبة للمماليك، وترجم فيه لسلاطين المماليك تراجم وافية، ويعتبر المقرئ شاهد عيان لبعض فترات تاريخ الدولة المملوكية، ولذلك فمعلوماته تتسم بالأهمية.

أما «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لجمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، فهو كتاب ضخم، يعد من أهم المصادر الموسوعية التاريخية، فهو دائرة معارف كبرى مرتبة على السنين، وذلك ابتداءً من فتح عمرو بن العاص لمصر سنة ٢٠هـ/٦٤٠م، حتى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، تحدث فيه المؤلف عن ولي مصر من الملوك والسلاطين والنواب مع ذكر ملوك الأطراف والأمراء، ومنهم أمراء الحجاز، وقد استفدت منه عما وقع من الحوادث المهمة، ومن توفي من علماء الحجاز والمجاورين، كما أنه كان العمدة في توثيق الكثير من المعلومات الخاصة بالحرمين الشريفين.

وله كذلك كتاب «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، استقيت منه معلومات مهمة عن بعض علماء الأسر المكية والمدنية ومؤلفاتهم، إضافة إلى انشاءات أمراء المماليك، وسلاطين الهند في الحرمين الشريفين.

وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لأحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، وهو يمثل دائرة معارف عربية في هذا العصر من حيث المضمون والمنهج، وقد أفاد هذا البحث في تعريف بعض الإصطلاحات المملوكية التي سادت في هذا العصر، كما بين لنا المكاتبات والمراسلات بين أمراء الحجاز وسلاطين المماليك، إضافة إلى إعطائنا وصفاً للحجاز وأهميته الاقتصادية والاجتماعية.

وهناك أيضاً كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) وهو من معاصري السلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري، وقد شاهد أحداث دولتهم، وكتب عنهم وخاصة فيما يتعلق بأحداث جدة والمنشآت التعليمية في الحرمين الشريفين.

وكتاب «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨)، الذي اشتمل على معلومات قيّمة عن الحركة التجارية في مدينتي جدة وينبع.

رابعاً: المصادر اليمنية:

يعتبر كتاب «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» تصنيف علي ابن حسن

الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م)، من المصادر المهمة التي استقيت منها بعض المعلومات التي تخص سلاطين بني رسول وما كانوا يتمتعون به من ثقافة وعلم، وما كان لهم من أيادي على المنشآت العلمية بمكة، وكذلك العلاقات العلمية الوثيقة التي كانت بين علماء الحجاز وبين هؤلاء السلاطين.

وكتاب «الفضل المزد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد» لعبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م)، سواء بتحقيق يوسف شلحد أو بتحقيق محمد عيسى صالحية، وهو كتاب أفادني في بعض أخبار الدولتين الرسولية والطاهرية وعلاقتها العلمية بالحجاز.

وهناك أيضاً كتاب «تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر» لمؤلفه محي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروسي (١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م) المؤرخ اليمني المشهور، وعلى الرغم من تأريخه لعلماء اليمن، إلا أنه يتحدث فيه عن علماء الحجاز وإنشاءات السلاطين عامة في الحرمين الشريفين.

خامساً: كتب التراجم:

ويتصدرها كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)، ويقع في إثني عشر جزءاً، ويشمل هذا الكتاب أهل المائة جميعاً أياً كانوا سواء كانوا من المسلمين أم من غيرهم، وهذا يدلنا على أهمية المنحنى الإنساني الذي ظهر عند العرب في هذه المصنفات المئوية العامة دون أن يفرقوا بين أحد من الناس بسبب إختلاف العقيدة أو غير ذلك.

وقد أرخ في كتابه هذا لجميع فئات المجتمع، كما أنه ترجم لكثير من معاصريه، وكانت تراجمهم أكثر دقة ووضوحاً من التراجم التي أوردها في كتابه «التحفة اللطيفة»، خاصة علماء المدينة، وقد ذكر أنه جعل كتابه مرتباً على حروف المعجم الترتيب المعهود في الأسماء والآباء والأنساب والجدود، مبتدئاً من الرجال بالأسماء، ثم بالكنى، ثم بالأنساب والألقاب، وجعل الجزء الأخير منه في تراجم النساء.

وقد استفدت منه كثيراً في كافة فصول البحث، لأن الفترة التي أرخ لها تعتبر قمة

الإزدهار العلمي في الحرمين الشريفين.

وكتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» من تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، ويقع في أربعة أجزاء، ويعد من الكتب المهمة، فهو يتضمن تراجم القرن الثامن الهجري من علماء ومحدثين وفقهاء ومؤرخين وسلاطين ووزراء وغيرهم، مرتبة أسماؤهم ترتيباً أبجدياً، وقد أخذ العسقلاني شطراً كبيراً من التراجم من مؤلفات المؤرخين الذين كانوا قبله، وقد أتى بتراجم كثير من النساء العالمات واشتغالهن بالتدريس والتحديث والتأليف، ولقد وجدت في هذا الكتاب معلومات مفيدة عن المدرسين المجاورين بالحرمين الشريفين ومعلومات أخرى عن العلوم والمؤلفات والإجازات العلمية.

ولابن حجر أيضاً كتاب «أنباء الغمر بأبناء العمر»، وقد خصصه للحوادث والوفيات التي وقعت في عصره منذ ولادته في سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م، أي قبل وفاته بسنتين، ولقد ذكر مؤلف هذا الكتاب كل ما وقع خلال تلك الفترة من الحوادث المهمة في العالم الإسلامي مع التوسع في أخبار مصر والشام وما يجري فيها من شؤون ومحاكمات ومناقشات سياسية وإدارية وفقهية، وأخبار سائر الدول الإسلامية.

وله أيضاً كتاب «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» وهذا الكتاب حقق منه الجزء الأول، أما الجزء الثاني فلا يزال مخطوطاً، وقد جعله ابن حجر لشيوخه الذين أخذ عنهم علم الحديث، وقد نقلت معظم المعلومات الخاصة بعلماء الحجاز ومجاوروه من الجزء المخطوط.

وهناك أيضاً كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» تصنيف عبدالحفي ابن العماد الحنبلي (ت ٨٩٠هـ/١٦٧٨م)، ويقع في ثمانية أجزاء، وقد رتبته على السنين من هجرة الرسول ﷺ حتى سنة ألف هجرية، وذكر فيه ما وقع من الحوادث، وتضمن تراجم الملوك والعلماء والأعيان والشخصيات البارزة من أهل الدين والسياسة والعلم والأدب، وقد أفادني هذا الكتاب في المعلومات المتعلقة بالعلماء والسلاطين وغيرهم، وكذلك دور

المرأة العلمي في الحجاز.

وكتاب «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، فقد وجدت فيه معلومات نادرة عن مؤلفات علماء الحجاز ومجاوروه. وكتاب «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» لعبدالمملك بن حسين العصامي (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م)، وكتاب «نظم العقيان في أعيان الأعيان» للسيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، وقد أورد كل منهما معلومات قيّمة عن الحركة العلمية في الحجاز بواسطة التراجم التي وردت في كتابيهما.

وكتاب «مرآة الجنان وعبرة اليقضان» لعبدالله بن أسعد بن علي الياضي اليمني المكي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، أرّخ فيها للأحداث والأعيان، وقد بدأه بالسنة الأولى للهجرة وختمه بنهاية سنة خمسين وسبعمائة من الهجرة، واستقينا منه المعلومات الخاصة بعلماء الحجاز وإنتاجهم العلمي.

سادساً: المصادر المتخصصة في فنون العلم:

يتصدرها كتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» لمحمد بن محمد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، العالم المشهور في علم القراءات، وهو أحد العلماء المجاورين في الحرم المكي، والذي مكنته حصيلته العلمية واجتماعه مع كثير من علماء القراءات في الحرمين الشريفين إلى إبرازهم في كتابه، حيث استفدنا بشكل كبير من التراجم التي أوردها لعلماء القراءات وحلقاتهم، وإنتاجهم العلمي في الحرمين الشريفين.

وكذلك كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، الذي ترجم فيه لعلماء اللغة والأدب بكافة فنونها، واستفدت منه في المبحث الخاص بالدراسات الأدبية واللغوية. وكتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للسخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، وقد مدّ البحث بدراسات قيّمة للعلماء الذين شاركوا في التأليف في حقل العلوم الإجتماعية في هذا العصر، كما بيّن لنا بعض الكتب الموجودة في المكتبات في الحجاز في ذلك العصر.

وهناك أيضاً كتب الطبقات، خاصة «طبقات الشافعية» التي ألف فيها كل من السبكي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، والأسنوي (ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، وابن قاضي شهبه

(٨٥١هـ/١٤٤٧م)، حيث أوردت هذه الكتب اتباع المذهب الشافعي ومؤلفاتهم ودورهم في الحرمين الشريفين.

وكتاب «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وذيول تذكرة الحفاظ، خاصة «لحظ اللاحاظ» للنتقي بن فهد (٨٧١هـ/١٤٦٦م)، أحد أفراد أسرة ابن فهد المكية المشهورة والذي تضمن كتابه بعض علماء الحجاز ومؤلفاتهم في فنون المعرفة، خاصة علم الحديث.

سابعاً: كتب الرحلات:

ومن أهم هذه الكتب ، رحلة محمد بن أحمد بن جبير (٦١٤هـ/١٢١٧م)، المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ورحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» مؤلفها أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، وهذان الكتابان يعدان من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها في دراسة الحياة الإقتصادية والإجتماعية والعلمية بمكة المكرمة، كما استفدت منهما في استقاء المعلومات عن المجاورين، وخزائن الكتب بالمسجد الحرام، والأرطة التي كانت معروفة في عصرهما.

كما تعتبر رحلة أبي القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، المسماة «مستفاد الرحلة والإغتراب» من المصادر المهمة لدراسة الحياة العلمية والعادات الإجتماعية بمكة المكرمة، وأورد لنا كثيراً من الشخصيات العلمية الذين قابلهم أثناء رحلته واعطانا معلومات عن الكتب التي تدرس في الحرم المكي الشريف.

وهناك أيضاً كتاب «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» لأبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد (٧٢١هـ/١٣٢١م)، و «الرحلة المغربية» لأبي عبدالله محمد بن محمد العبدري، وقد استقيننا منها معلومات قيّمة عن العادات الإجتماعية في المدينة المنورة، والحياة العلمية في الحرمين الشريفين.

وكتاب «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماه تأريخ المستبصر» لابن المجاور جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م). وعلى الرغم من تقدم كتابه عن الفترة الزمنية لعصرنا، إلا أن

المعلومات التي ذكرها في الحياة الإقتصادية والإجتماعية لمكة ذكرها غيره من الرحالة الذين أتوا من بعده مما يعني أن الواقع الإجتماعي لم يتغير كثيراً، إضافة إلى وصف الحياة الإجتماعية في الطائف التي لم نجد لها في أي مصدر من المصادر المعاصرة لتلك الفترة.

هذا بالإضافة إلى كثير من المعاجم الجغرافية، مثل «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، و «تقويم البلدان» لأبى الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، و «الروض المعطار» للحميري (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، وغيرها من المصادر الجغرافية التي أفادت البحث في توضيح بعض الأماكن والمواقع الحجازية، وغيرها من البلدان الأخرى التي ينتسب إليها العلماء المجاورين في الحرمين الشريفين، والكتب الجغرافية الحجازية الحديثة التي ألفها عاتق بن غيث البلادي، وأعطانا معلومات معاصرة لتعريفات هذه الأماكن والآثار الحجازية.

أضف إلى ذلك المعاجم اللغوية، مثل «لسان العرب» لابن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، و «القاموس المحيط» للفيروز أبادي (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)، و «المعجم الوسيط» الذي أنتجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقد استقينا منها تعريفات عامة للمدارس، والأربطة وغيرها في ثنايا البحث.

كما أفاد البحث من كتب «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زادة (ت ٩٦٢هـ/١٥٥٤م)، و «المقدمة» لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، و «كشف الظنون» لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، و «هدية العارفين» و «إيضاح المكنون» للبغدادي (ت ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)، وهذه الكتب جميعها أفادتنا في دراسة الإنتاج العلمي بوجه عام.

إضافة إلى فهرس المخطوطات، سواء المطبوعة والمندولة في المكتبات، أو الفهارس التي تضمها المكتبة المركزية، أو مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، والتي بينت لنا كثيراً مصير كتب علماء تلك الفترة في كافة فنون المعرفة.

كما لا أغفل في نهاية تحليلي لهذه المصادر أن أذكر مرجع هام، وهو كتاب

«العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين الماليك» لعللي بن حسين السليمان الذي كان بمثابة بوابة العبور والمفتاح الأول لمعرفة مصادر العصر المملوكي والحجازي لتلك الفترة، حيث يعتبر من أوائل من كتب عن الحياة العلمية في الحرمين الشريفين من خلال كتابه القيم.

وبجانب ذلك اعتمد البحث على عدد كبير من المصادر والمراجع التي اسهمت مجتمعة في بناء البحث بالشكل الذي ظهر فيه، وجميع هذه المصادر جرى حصرها في الملحق الخاص بالمصادر والمراجع في آخر هذه الرسالة.

والله ولي التوفيق ،،،

التمهيد

أولاً:

الحجاز - زحديده - أهميته.

ثانياً:

الحياة العامة في الحجاز من النواحي
السياسية والاجتماعية والاقتصادية

أولاً : الحجاز - تحديد أهيمته:

أ - تحديد الحجاز:

الحجاز: بكسر الحاء في اللغة مأخوذ من (الحَجَز) وهو اسم للحاجز لغة وللبلد المعروف اصطلاحاً وسمي بذلك من الحجز. أي الفصل بين الشيئين.^(١)

ويضيف البكري نقلاً عن الخليل بن أحمد^(٢) أنه سمي حجازاً لأنه فصل بين

(١) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقاء، الطبعة الأولى (القاهرة، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م)، ج١/ص١٢، ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري: لسان العرب، الطبعة الأولى، (بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج٥/ص٣٣١.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي: نحوي، لغوي، وهو أول من استخراج العروض، وحصن بها أشعار العرب توفي بالبصرة سنة ١٧٠هـ، وصنف كتباً منها: «العروض والشواهد»، «الإيقاع»، «الجمال»، «العين»، أنظر ترجمته في (ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون. ت)، ص٦٣ - ص٦٤، ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله الرومي الحموي: معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الطبعة الأولى: (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ج٣/ص٣٠٠ - ص٣٠٢، اليماني، عبد الباقي بن عبد المجيد: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب، الطبعة الأولى (الرياض، شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص١١٤، ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق فهد محمد شلتوت، (القاهرة، توزيع مكتبة ابن تيمية مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، بدون. ت)، ج١/ص٣١١ - ص٣١٢، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بدون. ت)، ص٥٥٣ - ص٥٥٩.

الغور^(١) وبين الشام، وبين تهامة ونجد.^(٢) والحجاز جبل ممتد حال بين الغور: غور تهامة ونجد، فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر، فهو حازر بينهما.^(٣)

ويتفق الأصمعي^(٤) والقليلبي على هذه التسمية^(٥)، بينما يرى الحميري: أنه سمي حجازاً لأنه حجز بين الغور والشام، وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة^(٦)، ويرى

(١) الغور: بالفتح ثم السكون، المنخفض من الأرض، قال الأزهري: الغور تهامة وما يلي اليمن - ياقوت: معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، بدون . ت) ج ٤/ص ٢١٧، والأصح أن تكون الغور «اليمن» فيكون الحجاز قد سمي كذلك لأنه يفصل بين اليمن والشام - (السيف، عبدالله محمد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الطبعة الثالثة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣)، ص ٣٣.)

(٢) معجم ما استعجم، ج ٢، ص ١٢.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢/ص ٢١٨.

(٤) عبد الملك بن قريش بن عبد الملك الأصمعي - من مشاهير علماء اللغة والأدب والنحو والتاريخ، واختلف في تاريخ وفاته، والأرجح سنة ٢١٠هـ بالبصرة، وله الكثير من الكتب منها: «نوادير الاعراب» و «كتاب اللغات» و «المذكر والمؤنث»، (ابن النديم: الفهرست، ص ٨٢، السيوطي: بغية الوعاة، ج ٢/ص ١١٢ - ص ١١٤).

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢/ص ٢١٩، القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج ٤/ص ٢٥٢، القليلبي، أحمد بن أحمد بن سلامة: النبذة اللطيفة في بيان مقاصد الحجاز ومعالمه الشريفة، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ١٠٧٧ تاريخ عن دار الكتب المصرية برقم ٢٤٩٢، ورقة ٣أ.

(٦) الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق: إحسان عباس (بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ص ١٨٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٥٢.

الأزهري: أنه سمي حجازاً لأن الحار^(١) حالت بينه وبين عالية نجد^(٢).

ويكاد الجغرافيون يتفقون على أن الحجاز سمي حجازاً لأنه يفصل بين شينيين أو بين منطقتين ولكنهم يختلفون في التحديد الجغرافي للحجاز، وقد قدمت بحوث عديدة في محاولة لفهم التحديد الجغرافي للحجاز عند العرب من خلال ما كتبه الجغرافيون المسلمون في العصور المختلفة^(٣).

والناظر في هذه التعريفات يجد خلافاً شديداً بين مفهوم هؤلاء المؤلفين للحجاز، وفي تحديدهم لمناطقه، ويجد تناقضاً يصعب تفسيره، والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف الحدود الإدارية لأقسام جزيرة العرب^(٤)، وأن هؤلاء المؤلفين قد كتبوا في عصور مختلفة، فكان كل واحد منهم متأثراً بما يسود في عصره من تقسيمات إدارية تؤثر بالتالي على التعريف الجغرافي للمنطقة التي يكتب عنها.

(١) وهي الحار الخمس : حرة بني سليم، حرة واقم، حرة النار، حرة شوران، وحرّة ليلى (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢/ص ٢١٩، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ٦٥٣.

(٢) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون وآخرين (القاهرة، ١٩٦٤م)، ج ٤/ص ١٢٢.

(٣) مثال ذلك - البحث الذي كتبه الدكتور صالح أحمد العلي بعنوان (تحديد الحجاز عند المتقدمين) في الجزء الأول من السنة الثالثة من (مجلة العرب) التي تصدرها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض، وقد صدر هذا العدد سنة ١٣٨٨هـ، كذلك البحث الذي كتبه الدكتور عبدالله ناصر الوهبي بعنوان: (الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب)، من المجلد الأول من السنة الأولى من مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).

(٤) صالح العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين، ج ١/ص ٢ - ص ٤، عبدالله الوهبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، المجلد الأول، ص ٥٥، عبدالله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ص ٣١.

فمن هذه الأقوال من جعل الحجاز هو الحجاز بين اليمن والشام وبين نجد وتهامة. (١)
ومنهم من جعله الحجاز بين نجد وتهامة فقط، واعتبر مكة تهامية، والمدينة حجازية،
والطائف حجازية (٢)، وقيل : المدينة نجدية وقيل تهامية، وقيل نصفها نجد ونصفها
تهام. (٣)

وتذكر المصادر نقلاً عن ابن الكلبي في موضع آخر: الحجاز ما حجز بين اليمامة
والعروض (٤)، وفيما بين اليمن ونجد، فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام وإلى
العذيب (٥)، والطائف من نجد، والمدينة من نجد. (٦) ويقول الحربي: «والطائف تدخل في

(١) البكري: معجم ما استعجم، ج ١/ص ١٢، الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي:
الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي -
جامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ٧٢٧ تاريخ عن مكتبة المتحف العراقي ببغداد برقم
١٣٨٥، ورقة ٤، القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣ أ - ورقة ٣ ب.

(٢) الأصفهاني، الحسن بن عبدالله: بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي (الرياض، دار
اليمامة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ١٤، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢/ص ٢١٩، العباسي، أحمد بن
عبدالمجيد: عمدة الأخبار في مدينة المختار، تصحيح: محمد الطيب الأنصاري، وحمد الجاسر،
(المدينة المنورة، المكتبة العلمية، بدون ت)، ص ٢٩٧، ابن خميس، عبدالله بن محمد: المجاز بين
اليمامة والحجاز، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، بدون ت)، ص ٣٢٨.

(٣) القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣ ب.

(٤) العروض: قرى بين الحجاز واليمن (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ١٠٣).

(٥) العذيب: بفتح العين المهملة وضم الدال المعجمة وسكون الياء ثم باء موحده وهو ماء بين
القادسية والمغيثة، وبينه وبين القادسية أربعة أميال، وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً، وهو
وادي لبني تميم ومنزل من منازل الحج العراقي (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ٩٢).

(٦) الحربي، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق
حمد الجاسر، الطبعة الثانية، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر،
١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٥٣٧، البكري: معجم ما استعجم، ج ١/ص ١٠.

فجد، لأن حدها ما بين فيد^(١) إلى المدينة، إلى أعالي أرض تميم^(٢)، والطائف منها^(٣).

وقد اختلف الجغرافيون في حدود الحجاز الجغرافية، ولكن أقدم من حددها ما قاله الشافعي، بأن الحجاز «مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها»^(٤)، وكذلك ما روي عن الأصمعي: «الحجاز من تخوم^(٥) صنعاء إلى تخوم الشام»^(٦) وأقرب الآراء إلى التحديد الجغرافي للحجاز ما رواه الهمذاني عن ابن الكلبي الذي حدد الحجاز جنوباً

(١) قيد: بفتح الفاء، بليدة بنجد على منتصف طريق حجاج العراق من الكوفة إلى مكة قريب من سلمى أحد جبال طيء، وبها يودع الحجاج بعض أمتعتهم، وتبعد عن الكوفة بمائة وتسعة فراسخ (أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان، (باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م)، ص ٩٧ - وموقعها جنوب حائل، أنظر، البلادي، عاتق بن غيث: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، الطبعة الأولى، (مكة، دار مكة للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ٢٣٩ - ص ٢٤٠.

(٢) نسبة إلى قبيلة تميم أشهر القبائل التي تسكن أرض نجد (كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج ١/ ص ١٢٦.

(٣) المناسك، ص ٥٣٧.

(٤) الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ص ١٠٢، القاموس المحيط، ص ٦٥٣، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ ص ٢٥٠، السمهودي، نور الدين علي بن أحمد: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالمجيد، الطبعة الرابعة، (بيروت، دار التراث العربي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج ٤/ ص ١١٨٢، العباسي: عمدة الأخبار، ص ٢٩٦.

(٥) التخوم: بالضم، الفصل بين الأرضين من العالم والحدود، وارضنا تتاخم أرضكم: أي تحادها (الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٣٩٩).

(٦) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢/ ص ٢١٩.

بقعرة^(١) اليمن حتى أطراف بوادي الشام، أي أنه اعتبر الحجاز سلسلة جبال السروات بأكملها^(٢)، التي تمتد من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها، تاركاً سهول تهامة الضيقة في الغرب، وهضبة نجد في الشرق، ويجب أن نتنبه لرواية الهمذاني، لأن بعض أقسام جبال السروات، وخاصة في جنوبها وشمالها لا تسمى حجازاً، بل أن الحجاز يقع وسط السلسلة من هذه الجبال^(٣)، كما أن اسم الحجاز يشمل في العرف تهامة أيضاً^(٤)، وبذلك يكون الحجاز هو المنطقة الممتدة من خط عرض ٢٠ شمالاً إلى خط عرض ٢٩ شمالاً.^(٥)

أما تحديد الحجاز الإداري الحديث فإنه لا يختلف كثيراً عن التحديد الجغرافي في الكتب القديمة عند العرب، فقد حدده بعض المؤلفين بقوله: (يحدُّ الحجاز من الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق البادية الكبرى)^(٦)، ومن الجنوب بلاد قبيلة بني مالك الكائنة بجبال

(١) قعرة: من قَعَرُ كل شيء: أقصاه، والمقصود هنا أقصى بلاد اليمن، (الفيروز آبادي: القاموس، ص ٥٩٧).

(٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوخ، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص ٥٨، البكري: معجم ما استعجم، ج ١/ص ٩، الوهبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، المجلد الأول، ص ٦٧.

(٣) العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين، ج ١/ص ٥

(٤) الدباغ، مصطفى مراد: الجزيرة العربية، (بيروت، دار الطليعة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م)، ج ١/ص ٦٥، الشريف، أحمد إبراهيم: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م)، ص ٣.

(٥) الدباغ: الجزيرة العربية، ج ١/ص ٦٥.

(٦) يعني نجد (ياقوت: معجم البلدان، ج ١/ص ٣١٨).

السروات المتاخمين لبلاد زهران^(١)، وشمالاً بادية الشام إلى تبوك من الداخل، ومن جهة البحر الأحمر العقبة^(٢).

ب - أهميته:

اكتسبت بلاد الحجاز مكانة دينية وسياسية منذ ظهور الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى^(٣)، وظلت البلاد محتفظة بمكانتها الدينية حتى اليوم وستبقى إن شاء الله إلى قيام الساعة .

فقد ظهرت في الحجاز بعض المدن التي أدت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي، وذلك باعتبارها مراكز دينية مثل مكة والمدينة أو مراكز تجارية مهمة مثل جدة وينبع المنفذين المهمين لتجارة الحجاز على البحر الأحمر، ومدينة الطائف وضواحيها التي كانت تعد مورداً تجارياً مهماً لغذاء أهل مكة وقراها من حبوب وفواكه وأمثالها.

ومكة المكرمة هي العاصمة الإسلامية وأقدم المدن التاريخية، وهي التي اعتبرت على مرّ الزمن عند العرب القاعدة الرئيسية لبلاد الحجاز على مرّ العصور، وهي في واقعها الحضاري والسياسي والإجتماعي قاعدة الحجاز وأمّ القرى^(٤).

(١) زهران: بفتح أوله، وإسكان ثانية، بعد راء مهملة: بلد بالسراة، وفيه الجبل المعروف بذي كشاء، البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ / ص ٧٠٤ ، ج ٢ / ص ١١٢٩. وتقع بلاد زهران في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية في أواسط بلاد الحجاز وتهامة ، وتبعد عن مدينة الطائف ١٨٠ كم ، ويوجد بها حوالي ٥٠٠ قرية منتشرة في كافة أنحاء بلاد زهران ، ويسكنها نحو ٣٥٠ ألف نسمة تقريباً جميعهم من الحضر ، (الزهراني ، محمد مسفر حسين : لمحات من بلاد زهران ، الطبعة الأولى ، (نشر الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، ١٤٠٣ هـ) ، ص ١١) .

(٢) كحال ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٣١.

(٣) خفاجي، أحمد عبد الحميد: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، (رسالة ماجستير، آداب الإسكندرية، ١٩٦٨م)، ص ٢.

(٤) الأصفهاني: بلاد العرب، ص ١٤، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ / ص ٢١٩، الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسن المكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه لجنة من كبار العلماء والأدباء، ج ١ / ص ٢٦، الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، (بغداد، ١٣١٤هـ)، ج ١ / ص ٩٤.

ومكة تقع في بطن وادي مقدس يسمى باسمها^(١)، وتحيط بها الجبال من كل جانب^(٢)، وبها الكعبة المشرفة مهد الديانات ومقصد العرب في الجاهلية وقبله المسلمين بعد ذلك، يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٍ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، ويقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ خَيْرٌ مِنْ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٥)، مما جعلها ينبوعاً حضارياً بقدوم الناس من كل مكان، والقاعدة الروحية لكل مسلم في أصقاع الأرض، وكانت مكة ولا تزال من أهم المراكز التجارية بالحجاز، ويعزى انتعاشها وازدهارها إلى وجود البيت الحرام، فضلاً عن وقوعها في منتصف الطريق بين الشام واليمن، وقربها من ميناء جدة على البحر الأحمر^(٦)، مما جعلها مسلكاً للتجار وأكسب أهلها أهمية تجارية منذ أقدم العصور.

(١) ابن جبير، أبو الحسين محمد ابن أحمد الكناني: رحلة ابن جبير، (بيروت، ١٩٦٤م)، ص ٨٧، الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ ص ٢٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٨٧، الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ ص ٢٣، السباعي، أحمد: تاريخ مكة - دراسات في السياسة والعلم والإجتماع والعمران، الطبعة السادسة، (مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ج ١/ ص ١٥، عبدالله، عبدالرحمن صالح: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (جدة، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)، ص ٢١.

(٣) سورة الحج، آية ٢٧.

(٤) سورة آل عمران، آية ٩٦ - آية ٩٧.

(٥) سورة إبراهيم، آية ٣٧.

(٦) الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص ١٩، خفاجي: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، ص ٣ - ص ٤.

أما المدينة المنورة فإنها تحتل المكانة الثانية في نفوس العالم الإسلامي بعد مكة المكرمة، لأنه مهجر الرسول وبها مسجده ﷺ، وقد اختارها الله له عندما أخرجته قريش من مكة. (١)

وتقع المدينة إلى الشمال من مكة في الطريق إلى الشام، وهي على العكس من مكة التي عرفت بأنها تقع في وادٍ غير ذي زرع، فإن المدينة تقع في سهل خصيب يمتاز بوفرة المياه وكثرة النخيل والثمار الحسنة. (٢) ومن أهم آثار المدينة، المسجد النبوي الشريف، وبه قبر الرسول ﷺ، حيث أصبحت عاصمة الإسلام الأولى بعد قيام دولته في المدينة، ثم في عهد الثلاثة الأوائل من الخلفاء الراشدين، ولقد ورد في فضل المدينة المنورة على البلدان وقد استهها الكثير من الروايات الصحيحة في الأحاديث الشريفة والكلمات المأثورة، عدا ما جاء في القرآن الكريم من إستشهادات وبيان لكرامتها. (٣) فأصبحت المدينة مزار المسلمين من كل أقطار الدنيا، خاصة حين قدومهم لأداء فريضة الحج.

أما جدة فهي متنفس أهل الحجاز للتجارة والرحلة إلى العالم لموقعها الإستراتيجي المهم، حيث تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي مفتاح البحر لمكة. (٤)

وأول من اهتم بها في الإسلام هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٦هـ/٦٤٦م بعد أن شاور الناس في ذلك، إذ كانت الشعبية (٥) ساحل مكة

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج ١/ص ٢٢٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢/ص ٢٩٢ - ص ٢٩٤.

(٣) حافظ، عبدالسلام هاشم: المدينة المنورة في التاريخ - دراسة شاملة - الطبعة الثالثة، (المدينة، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ٣٤.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢/ص ١١٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٦٣.

(٥) الشعبية: تصغير شعبة، وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وقال ابن السكيت: الشعبية قرية على شاطئ البحر على طريق اليمن، (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣/ص ٣٥١) وهي على بعد ٦٨ كيلو متراً جنوب جدة، (رفعت، إبراهيم: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/١٩٤٥م)، ج ١/ص ٢٣، البلادي: معجم معالم الحجاز، ج ٥/ص ٧٤.

التجاري قبل الإسلام^(١)، ومنذ ذلك التاريخ وجدة ميناء أم القرى، تنتهي إليها المراكب من مصر واليمن وغيرهما.^(٢) واستمرت جدة في النمو شيئاً فشيئاً تبعاً لزيادة دخلها بزيادة عدد الحجاج وقوة الحركة التجارية التي تقوم فيها في مواسم الحج، ثم بدأ التجار يأتون إليها بعد نزولهم بعدن^(٣)، فيمرون بها في طريقهم إلى مكة، ويقيمون في خاناتها^(٤)، ويتجرون في أسواقها، ويتهيأون منها لدخول البيت الحرام، وسرعان ما أصبحت جدة ليست ميناء مكة فقط بل ميناء الحجاز كله.^(٥)

(١) ابن المجاور، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماه تأريخ المستبصر، تصحيح، أوسكر لوفقرين، الطبعة الثانية، (بيروت، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص ٤٢ - ص ٤٣، ياقوت: معجم البلدان، ج ٣/ص ٣٥١، رفعت: مرآة الحرمين، ج ١/ص ٢٣ - ص ٢٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/٢٦٣.

(٣) عدن: بفتح العين والدال المهملتين ونون: وهي على ساحل البحر، بلدة حظ وإقلاع لمراكب الهند وهي بلدة تجارية، (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٩٣)، وأنظر كذلك ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ٨٩.

(٤) الخان: كلمة فارسية أصلها خانة وتعني البيت أو الدار ثم استعملت اللفظة بكثرة في مصر والشام ومعظم البلاد الإسلامية الشرقية، ذكرها المؤرخون في عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك، والخان عبارة عن مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الخوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع، ويتوسط الخان فناء ضخم على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ويجدون في الخان المأوى لهم ولدوابهم، (فهيم، نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص ٢٩٣، القوصي، عطية: تجارة مصر في البحر الأحمر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، (القاهرة، دار النهضة العربية، بدون ت)، ص ١٩٧، حسنين، عبد المنعم محمد، قاموس الفارسية، (الطبعة الأولى ، دار الكتب الإسلامية ، ١٤٠٢هـ)، ص ٢١٣.

(٥) الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس (باريس، المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م)، ص ١٣، ربيع، حسنين محمد: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي، الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، كلية الآداب، قسم التاريخ، سنة ١٩٧٧م (الرياض، مطابع جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج ٢/ص ١٣٥.

أما الطائف فهي من أقدم مدن الحجاز وأقربها إلى مكة، وتقع في جبال السروات فوق جبل غزوان.^(١) وقد اشتهرت بطيب هوائها ويرد مائها^(٢)، لذلك اتخذها أهل مكة ملجأً ومصيفاً لهم يستمتعون به^(٣). كما أمتازت الطائف بتنوع محاصيلها الزراعية ووفرة إنتاجها التي تفيض عن حاجة السكان المحليين، ونتيجة لذلك، فقد أصبحت الطائف المورد الرئيسي لأسواق مكة بكل ما تحتاجه من فواكه وخضروات.^(٤)

لذلك كان الكثير من عرب البوادي يغبطون أهلها على ما هم فيه من نعيم.^(٥) ومن أشهر أودية الطائف وادي وَجَّ^(٦) الذي ورد ذكره من خلال بعض الأحاديث في حصار

(١) غَزَوَان: بالفتح ثم السكون، وهو الجبل الذي على ظهره مدينة الطائف، (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ٢٠٢).

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ٩، ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٥، الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ٨٩، جار الله ابن فهد، محمد بن عبدالعزيز بن عمر: حسن القرى في أودية أم القرى، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ١٠٧٠، تاريخ عن مكتبة الأحقاف باليمن برقم ٩٨ مجاميع، ورقة ١٩.

(٣) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله: المسالك والممالك، (بغداد، مكتبة المثنى، بدون ت) ص ١٣٤.

(٤) الاضطخري: إبراهيم بن محمد: المسالك والممالك، (القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص ٢٧٤، ابن حوقل، أبو القاسم محمد: صورة الأرض، (بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون ت)، ص ٣٩، المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد بن بكر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، ١٩٠٦م)، ص ٧٩، ابن جبير: الرحلة، ص ١٢٢، ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ١١.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ١١.

(٦) وَجَّ: بالفتح ثم التشديد، والوج في اللغة: عيدان يتداوى بها، وله عدة معانٍ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: إن آخر وطأة لله يوم وج: وهو الطائف وأراد بالوطأة الغزاة هنا، وكانت غزاة الطائف آخر غزوات الرسول ﷺ، وقيل سميت وجاً بوج بن عبدالحق من العمالقة ... (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥/ص ٣٦١ - ٣٦٢)، وذكر البلادي: وج وادي الطائف الرئيسي يسيل من شعاف السراة جنوب غرب الطائف (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ٢٣١).

الرسول ﷺ للطائف^(١)، ولم تكن جدة هي ميناء الحجاز الوحيد، بل كان هناك ميناء آخر وهو ينبع يقع على ساحل البحر الأحمر^(٢)، بين مكة والمدينة، وقد سميت بذلك لكثرة ينابيعها، وقد ذكرت وثائق الجنيزة^(٣) على أنها كانت من أهم الموانئ التجارية على البحر الأحمر^(٤)، بالإضافة إلى أنها كانت قريبة من طريق الحاج الشامي^(٥).

وهكذا تتضح لنا أهمية الحجاز وموقعها الإستراتيجي المهم من خلال هذه المدن، وبالتالي أهميتها لدى الملوك والسلاطين الذين تعاقبوا على الإهتمام بهذه المنطقة والسيطرة عليها، إلى أن جاء عصر المماليك الذين اعتبروا أنفسهم بأن لهم الأحقية في أن

(١) ابن حنبل، أحمد: المسند، تحقيق أحمد شاكر، (مصر، دار المعارف، ١٣٧٤هـ)، ج ١/ص ١٦٥، أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود مع حاشية عون المعبود، (بيروت، دار الكتاب العربي، بدون ت)، ص ٩٣، ابن فهد: جاز الله محمد بن عبدالعزيز: تحفة الطوائف في فضائل الخبر بن عباس والطائف، تحقيق محمد سعيد كمال، محمد منصور الشقحاء، الطبعة الأولى، (الطائف، نادي الطائف الأدبي، بدون ت)، ص ٤١، العجيمي، حسن بن علي بن يحيى: إهداء الطوائف من أخبار الطائف، تحقيق يحيى محمود ساعاتي، الطبعة الثانية، (الطائف، دار ثقيف، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ٤٤.

(٢) السليمان، علي بن حسين: «العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك»، (رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص ١٨٩.

(٣) الجنيزة: كلمة عبرية *Geniza* - مثل الكلمة العربية جنازة - مشتقة من الكلمة الفارسية بمعنى (خزانة) - وفي العصور الوسطى اطلقت على تلك الحجرة التي كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وإيصالات وخلافه، وهي مجموعة من الوثائق المهمة لدراسة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي والثقافي لمنطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى، (ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج ٢/ص ١٣١ - ص ١٣٢).

(٤) ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانئ الحجاز في العصور الوسطى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج ٢/ص ١٣٥.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥/ص ٤٥٠.

يكونوا حماة ورعاة لشئون الحرمين الشريفين، خاصة وأنهم هم الذين وقفوا في وجه الزحف المغولي، ولاشك أن السيطرة على هذه المنطقة تكسبهم الصفة الشرعية لإحياء الخلافة العباسية^(١)، وأن يظهروا أمام المسلمين في المشرق والمغرب بمظهر المدافعين والحماة عن الأراضي المقدسة.

ومن الأسباب المهمة التي دعت المماليك إلى السيطرة على هذه المنطقة، رغبتهم الجادة في السيطرة على طريق التجارة عبر موانيء البحر الأحمر، وخاصة موانيء الحجاز المجاورة لبلاد اليمن المتحكمة في مدخل البحر الأحمر حيث كان بها عدن أهم مركز تجاري، وذلك رغبة في دفع تجار الشرق إلى جلب بضاعتهم إلى هذه الموانيء فيجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة، ومن ثم استتباع الحجاز والإشراف على اليمن^(٢)، حيث كان بنو رسول^(٣) يسيطرون على اليمن منذ عام (١٢٢٦هـ/١٢٢٩م) والإستيلاء على الحجاز

(١) وذلك حينما وصل الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر العباسي إلى مصر في سنة ٦٥٩هـ في عهد الظاهر بيبرس سلطان مصر واستقبله وبايعه بالخلافة، وانتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى مصر بعد اجتياح التتار بغداد سنة ٦٥٦هـ وقتل الخليفة المستعصم بالله، (ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق، أحمد أبو ملح ومحم وعلي نجيب عطوى وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبدالساتر، الطبعة الأولى، (القاهرة، دار البيان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج ١٣/ص ٢٤٤ - ص ٢٤٥.

(٢) العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، دوروتيا كرافولسكي، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ج ٢/ص ٤٢، عاشور، سعيد عبدالفتاح: العصر المالكي في مصر والشام، (القاهرة، ١٩٦٥)، ص ٢٨٧.

(٣) بنو رسول: يرجع نسبهم إلى جدهم الأكبر محمد بن هارون بن أبي الفتح، وأما سبب تكتيته برسول فترجع إلى أن الخليفة العباسي أنس فيه رشداً وعقلاً فاخصه لسفارته إلى السلاطين في مصر والشام لأنه كان يتمتع بصفات شخصية ممتازة، كالوقار وثبات العقل ... مما أكسبه ثقة الخليفة العباسي، فقد كان الخليفة يرسله برسالة شفوية ويتلقى الإجابة عنه مشافهة، وهذا يدل على الثقة فيه، وقد حكم بنو رسول اليمن من سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٠م حتى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م يحيى بن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد: غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، (القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ج ١/ص ٤١٩.

يعني السيطرة على طريق التجارة الدولية عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء عدن، ومن هناك عبر البحر الأحمر إلى أفريقية، وفارس، والهند، وأندونيسيا والصين.^(١)

وقد ساعد على تثبيت دعائم الممالك في الحجاز عدة أمور ضمنّت لهم السيطرة الفعلية على هذه المنطقة منها:

١ - إرسال الحاميات إلى الحجاز، لكي تضمن الإتصال السريع بين القاهرة والحجاز عندما كانت الأحوال تنذر بحركات معادية للممالك في البلاد، أو عند الإحساس بانتفاض الأشراف على السلطة المملوكية.^(٢)

٢ - جذب أمراء الأشراف إلى جانبهم لكونهم الحكام الفعلين للحجاز، واستغلال الخلافات المستمرة بينهم للتدخل.

٣ - إقامة الخطبة والدعاء لهم على المنابر في الحرمين الشريفين.

٤ - قيام كثير من سلاطين الممالك بالإصلاحات والعمائر في الحرمين الشريفين لتأكيد اهتمامهم بها.

٥ - إرسال كسوة الكعبة المشرفة سنوياً^(٣)، وكسوة الحجرة النبوية الشريفة كل سبع سنوات تقريباً.^(٤)

٦ - ضرب السكة باسمهم.^(٥)

(١) العمري: مسالك الأبصار، ج ٢/ص ٤٢.

(٢) خفاجي: موقف مصر من الحجاز في عصر الممالك الجراكسة، ص ١٧.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ١٢٣ - ص ١٢٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٣٠٦، وفي سلطنة الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٣هـ - ٧٤٦هـ) كانت كسوة الحجرة النبوية كل خمس سنوات، (الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ١٢٣).

(٥) الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد الحسني، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق، محمد حامد الفقي، فؤاد سيد، محمود محمد الطناحي، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج ١/ص ٤٦٢ - ص ٤٦٣، العمري: مسالك الأبصار، ج ٢/ص ٤٢.

ثانياً: الحياة العامة في الحجاز من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية:

أ - الحياة السياسية:

لم يشهد الحجاز استقراراً سياسياً خلال القرنين السابع والثامن الهجري، حيث اشتعلت الفتن والنزاعات بين الأشراف بشكل كبير، والناظر إلى عدد الأمراء الذين تولوا إمارة الحجاز يدرك مدى تدهور الوضع السياسي في تلك الحقبة. (١)

وقد ساعدت هذه الظروف في التدخل المملوكي في الحجاز حينما قام السلطان المملوكي بيبرس (٢) بفض النزاع القائم بين الشريف أبي غني (٣) وعمه إدريس بن

(١) أنظر أمثلة على الحروب بين الأشراف في حوادث سنوات (١٢٥١هـ/١٢٥٣م)، (١٢٥٢هـ/١٢٥٤م)، (١٢٥٦هـ/١٢٥٨م)، (١٢٦٧هـ/١٢٦٨م)، (١٢٦٩هـ/١٢٧٠م)، (١٢٧٠هـ/١٢٧١م)، (٧٠١هـ/١٣٠١م)، (٧٣١هـ/١٣٣٠م)، (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، (٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، (٧٦١هـ/١٣٥٩م)، وغيرها، النجم بن فهد، عمر بن محمد: إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق فهم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى (جدة، دار المدني، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج ٣.

(٢) هو الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي التركي، وهو الرابع من ملوك الترك، ونسبه هذا إلى الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري، الذي اشتراه، وكانت وظيفته حمل أكياس البندق الذي يرمي به، والسير به خلف السلطان أو الأمير، ثم انتقلت ملكيته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاعتقه وقدمه على طائفة الجمدارية، وكان في جيش المظفر قطز حين هزم التتار بموقعة عين جالوت، وفي عودتهم منتصرين تأمر مع بعض الأمراء على قتل المظفر قطز، فقتلوه، وأعلنوا سلطنة الظاهر بيبرس في سادس عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ، التاسع من سبتمبر سنة ١٢٦٠م، واستمرت سلطنته حتى وفاته سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م بدمشق (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/ص ٩٤ - ص ٢٠٠).

(٣) محمد بن الحسن بن علي بن قتادة ابن إدريس بن مطاعن الحسني، أبو غني، من أشهر أمراء مكة، وتولى أمرها قرابة خمسين عاماً، وكانت فترة حكمه مليئة بالحروب والفتن، كما تخللها كذلك فترات أمن وهدوء واستقرار، وعرف بالشجاعة والحزم، توفي سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م)، (الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ٤٥٦ - ص ٤٦٦، ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (بيروت: دار الجيل، بدون ت)، ج ٣/ص ٤٢٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨/ص ١٩٩، النجم ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٣٤.

قتادة^(١) أمير مكة سنة (٦٦٧هـ/١٢٢٨م)، وقد تمكن أبو نفي من طرد عمه إدريس لأن الأخير كان يميل إلى الرسولين في اليمن، فأنفرد أبو نفي بإمارة البلاد، وخطب للملك الظاهر بيبرس.^(٢)

وبذلك ازداد نفوذ المماليك في مكة على حساب نفوذ بني رسول، وانفردوا بالدعاء لهم على منبر الحرم المكي الشريف، ومع ذلك فقد تخللها فترات عصيان من أشرف مكة، أعيد فيها الدعاء للملك اليمن المظفر شمس الدين يوسف^(٣)، وذلك سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م^(٤) على الرغم من أن سلطان مصر المنصور قلاوون^(٥) قد استحلف أبا نفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بأن يكون عدواً لمن عاداهم وصديقاً لمن صادقهم، ولا يخرج عن طاعتهم وأن يفردهم بالخطبة والسكة، ويفعل في الخدمة فعل المخلص.^(٦)

(١) إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني، اشترك مع ابن أخيه أبو نفي في حكم مكة وقامت بينهما عدة حروب، انتهت بمقتله سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٢٧٨ - ٢٧٩، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٩٩).

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ٤٥٩، المقرئ، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، سعيد عبدالفتاح عاشور، (القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢م)، ج ١/٢: ص ٥٧٩، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٩٣.

(٣) يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملك المظفر، صاحب اليمن، ولي السلطنة بعد أبيه، سيطر على مكة والطائف وغيرها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م وأخرج منها سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وكسى الكعبة، وله مآثر كثيرة بالحجاز، وكانت مدة سلطنته ستاً وأربعين سنة، وتوفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م (الفاسي: العقد الثمين، ج ٧/ص ٤٨٨ - ٤٨٩).

(٤) المقرئ: السلوك، ج ١/٣: ص ٧٨٦.

(٥) الملك المنصور سيف الدين قلاوون بن عبدالله الألفي التركي الصالح النجمي، سابع ملوك الترك بالديار المصرية، تولى الملك في رجب سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وكان على يديه فتح معظم حصون الصليبيين في البلاد الشامية، وطبقت انتصاراته عليهم الآفاق، ومرض عند خروجه للغزو من القاهرة، ومات في مخيمه عند مسجد التبن في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/ص ٢٩٢ - ص ٣٤٤).

(٦) أنظر نص اليمن التي أقسمها أبو نفي (الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ٤٦٢ - ص ٤٦٣).

وكان لإبنه الناصر محمد بن قلاوون^(١) من نفوذ الكلمة بمكة و استبداده بأمر
الولاية فيما لم يكن لمن قبله من ملوك الترك بمصر^(٢)، حيث كان يعتمد إلى إصلاح الأمر
بالمال والمدارة حيناً، وإلى فرض سيطرته بالقوة وإرسال الحملات حيناً آخر.

وفي عهده توفي أبو نفي وخلفه أربعة أبناء تنازعوا الأمر بعده، وهم أبو المغيث^(٣)،
وعطيفة^(٤)، وحميضة^(٥)، ورميثة^(٦) ودام نزاعهم ستة وثلاثين عاماً منــــــذ

(١) السلطان الناصر محمد بن المنصور بن قلاوون، ولد بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وتولى
السلطنة ثلاث مرات الأولى في سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م بعد قتل أخيه الأشرف خليل، ثم خلع في
المحرم سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وعمره نحو العشر سنين، والثانية في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، ثم عزل
نفسه واستقر بقلعة الكرك في شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وهزم إبان توليته هذه جحافل التتار
هزيمة منكرة على تل شقحب بالشام، والثالثة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م حينما قدم من دمشق واسترد
ملكه من المظفر بيبرس الجاشنكير، وتوفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، (ابن تغري بردي: النجوم
الزاهرة، ج ٨/ص ٤١ حتى نهاية الجزء، ثم الجزء التاسع كله).

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ١٩١.

(٣) أبو المغيث بن أبي نفي، يلقب عماد الدين، ولي أمر مكة في سنوات متفرقة، وانهزم أمام أخيه
حميضة سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م (ن.م.س، ج ٨/ص ٧٩ - ص ٨٠).

(٤) عطيفة بن أبي نفي، يلقب سيف الدين، ولي أمر مكة نحو خمس عشر سنة مستقلاً بها وفي
بعضها، وشريكاً لأخيه رميثة في بعضها، وكان موصوفاً بالشجاعة المفرطة، قدم القاهرة، وألزم
بالإقامة بها حتى توفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م (الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦/ص ٩٥ -
ص ١٠٠).

(٥) حميضة بن أبي نفي، يلقب عز الدين، ولي أمر مكة إحدى عشرة سنة ونصف سنة أو أزيد في أربع
مرات، منها مرتان شريكاً لأخيه رميثة، ومرتان مستقلاً بها، وقتل سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م،
(ن.م.س، ج ٤/ص ٢٣٢ - ص ٢٤٥).

(٦) رميثة بن أبي نفي، يكنى أبا عرادة، ويلقب أسد الدين، ولي أمر مكة ثلاثين سنة أو أكثر في
سبع مرات، مستقلاً بذلك أربع عشرة سنة ونصف، وشريكاً لأخيه حميضة مرتين منهما،
مجمولها نحو عشر سنين، وشريكاً لعطيفة خمس سنين وأزيد، توفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م،
(الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ص ٤٠٣ - ص ٤١٧، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢/ص ١١١).

سنة ١٣٠١هـ/ ١٣٠١م^(١) حتى سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، حيث خلس الأمر إلى رميثة الذي اعتزل الحكم سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م^(٢) وسلم الأمر لولديه عجلان^(٣) وثقبة^(٤) اللذين تبادلا الإمارة حتى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م حيث دب الصراع والمنافسة بينهما^(٥)، فاستعان عجلان بمصر^(٦)، بينما استنجد ثقبة باليمن^(٧)، وظل الصراع بينهما مستمراً حتى وفاة ثقبة في سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م^(٨) فأنفرد عجلان وابنه أحمد^(٩) بالأمر بعد موافقة سلطان

(١) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٣٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ص ٤١٦.

(٣) عجلان بن رميثة بن أبي نفي، ولي أمر مكة نحو ثلاثين سنة، مستقلاً بها مدة، وشريكاً لأخيه ثقبة مدة أخرى، وشريكاً لابنه أحمد مدة، وكان مكرماً لأهل السنة ذا عقل مستنير ورأي ودهاء، وتوفي سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٦/ص ٥٨ - ص ٧١، العز بن فهد، عبدالعز بن عمر: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهد شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ج ٢، ص ٥٨ - ص ٧١.

(٤) ثقبة بن رميثة بن أبي نفي، يلقب أسد الدين، ولي أمر مكة عدة سنين، وكانت له عدة مواقف سيئة مع أمراء الحج والجلاب في جدة، وكان كثير الرعاية للزيدية، موصوفاً بالكرم والشجاعة، وتوفي سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م بالجديد (الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٣٩٥ - ص ٣٩٩).

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٤١.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٣٩٦، ج ٦/ص ٦٢، المقرئ: السلوك، ج ٢/ص ٨٢٠.

(٧) الخزرجي، علي بن الحسن: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق، محمد بسيوني عسل، (مصر، مطبعة الهلال، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، ج ٢/ص ٨٤، المقرئ، أحمد بن علي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق، جمال الدين الشيبال، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م)، ص ١١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠/ص ٢٢٦.

(٨) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦/ص ٦٧ - ص ٦٨، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٩١.

(٩) أحمد بن عجلان بن رميثة، يلقب شهاب الدين، ولي أمر مكة شريكاً لأبيه ومستقلاً بها، ثم شريكاً لابنه محمد، ستاً وعشرين سنة، وكان أعدل الأمراء وأحسنهم، مكرماً للتجار، محبوباً من السلاطين والأمراء من خارج الحجاز، توفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م وأسف الناس على وفاته، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٨٧ - ص ٩٧).

الماليك حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وفي تلك السنة اعتزل عجلان الحكم، وتنازل عنه لابنه أحمد مقابل مبلغ من المال وأن يبقى اسمه في الخطبة.^(١) فوافق السلطان المملوكي شعبان^(٢) على هذا التغيير^(٣)، حرصاً على السلام وازدهار التجارة وتشجيعها في البحر الأحمر، وظل حاكماً حتى وفاته سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م.^(٤)

وهكذا شغل أبو غني ثم أولاده من بعده سلاطين مصر في خلافاتهم، مما جعلهم يرجحون كفة أمير على آخر، وبذلك ازداد ضعف نفوذ الرسولين، وانقطع محملهم نحو ٦٠ سنة إلى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م^(٥)، ثم عاد وانقطع من سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م إلى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م.^(٦)

وقد شهدت مكة استقراراً سياسياً خلال القرن التاسع، وبداية القرن العاشر الهجريين في عهد حسن بن عجلان^(٧)، الذي اتبع سياسة حذره مع دولة الماليك، إذ

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٩٠، ج ٦/ص ١٦٩، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣١٨.

(٢) هو الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولي السلطنة بمصر سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، واستمرت سلطنته حتى قتل سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م (المقريزي: السلوك، ج ١/٣: ص ٨٣ - ص ٢٨٢).

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٢٠.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢/ص ٢٠٦، الخزرجي: العقود اللؤلؤة، ج ٢/ص ١٨٧.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٣٢، وقد ذكر ابن فهد أن انقطاعه دام ٨٠ عاماً، بينما يذكر في حوادث سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م قدوم المحمل اليمني، ج ٣/ص ١٧٠، الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢/ص ٢٤٤.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٤٠٨.

(٧) حسن بن عجلان بن رميشة، يلقب بدر الدين، ولد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م بمكة ونشأ بها وتولى أمرها سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م، وبعد من أفاضل الأمراء الذين تولوا أمر مكة، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٢٩هـ/١٤٣٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٢/ص ٨٦ - ص ١٥٦، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٩٥، العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢/ص ٣٥٤، السخاوي: محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون ت)، ج ٣/ص ١٠٣ - ص ١٠٤.

أيقن أن السلطان الناصر فرج بن برقوق^(١) لم يكن أقل حرصاً من سبقه على استمرار السيطرة المملوكية على الحجاز^(٢)، وقد بلغ من الجاه والقوة أن حاول غزو اليمن سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م^(٣)، وكذلك شهدت مكة استقراراً نسبياً أيضاً في عهد أولاده من بعده، وخاصة ابنه بركات^(٤) الذي تمتعت مكة في أيامه بالطمأنينة والرخاء والأمن.^(٥)

(١) الناصر فرج بن الظاهر برقوق، تولى السلطنة في صبيحة وفاة والده، وذلك سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، وقتل في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، (المقريزي: السلوك، ج ٣/٣: ص ٩٥٩، ج ١/٤: ص ٣ - ص ٢٢٨، ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج ٢/ص ٥٢٠، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦/ص ١٦٨).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٨٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ص ١٠٦ - ص ١٠٧، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٤٦٩، الجزيري، عبدالقادر بن محمد: الدرر القرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعده للنشر حمد الجاسر، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج ١/ص ٦٩٠ - ص ٦٩١.

(٤) بركات بن حسن بن عجلان، ولد سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، ولي أمر مكة من غير شريك بعد والده ستاً وعشرين سنة، وفي حياته بتخليتها له نحو أربع سنين أو خمس، وفي بعضها شاركه أخوه إبراهيم وشريكاً لأخيه أحمد نحو ثمان سنين، وكان سياسياً، شجاعاً، عارفاً بالأمور، ذا ثروة، وله مآثر كثيرة بمكة، وتوفي سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م، أنظرمصادر ترجمته في (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥/ص ٣٧٩، النجم بن فهد، عمر بن محمد: إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق عبدالكريم الباز، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج ٤/ص ٢٧٢، السخاوي، محمد بن عبدالرحمن: التبر المسبوك في ذيل السلوك، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون ت)، ص ١٨٤.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ص ١٣.

ثم حفيده محمد بن بركات^(١) الذي استقر في حكم مكة قرابة ٤٤ عاماً من سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م إلى سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م وهي أطول فترة تولاهها أمير مكة بمفرده دون انقطاع، ولم يحدث فيها اضطرابات ولا عزل، وهذه الفترة تعتبر فترة استقرار ذهبية للحالة السياسية في مكة، بعد أن كانت تروعاها كثرة الخلافات بين الأمراء.

وفي عهده دخلت معظم بلاد الحجاز تحت حكمه بسبب الحملات^(٢) التي كان يقوم بها بين حين وآخر، مما جعل السلطان قايتباي^(٣) يمنحه أحقية توليه جميع المناصب في الحجاز في أوائل سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م.^(٤)

(١) محمد بركات بن حسن بن عجلان، ولد سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، وبعد من أشهر الأمراء الذي تولوا أمر مكة، واتصف بالأدب والتواضع والعقل والفهم، توفي سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، النجم بن فهد، عمر بن محمد، الدر الكمين بذيل العقد الثمين، في تاريخ البلد الأمين، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم ٢٥١، تاريخ عن مخطوط مكتبة رضا أمبور بالهند رقم ٣٦١٣، ورقة ١٩ب، العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢/ص ٥٠٦، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧/ص ١٥٤.

(٢) النجم بن فهد: الدر الكمين، ورقة ١٩ب - ورقة ٢٠أ.

(٣) قايتباي المحمودي الأشرفي الظاهري، مكث في الحكم قرابة ثلاثين عاماً، وترتيبه الحادي والأربعون من ملوك الترك، ولد سنة بضع وعشرين وثمانمائة، قدم مع تاجر اسمه محمد بن رستم في سنة ٨٣٩هـ فاشتراه الأشرف برسباي، ثم صار إلى الملك الظاهر، فاعتقه، واستمر يترقى من مرتبة إلى مرتبة، وتولى الحكم سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، وتوفي سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م، وله الكثير من المآثر بالحرمين، (العيدرسي، محي الدين عبدالقادر بن شيخ: تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ١٥ - ص ١٦.

(٤) العز بن فهد، عبدالعزيز بن عمر، بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القرى، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم (٧٣) تاريخ عن مخطوط مكتبة الحرم المكي، رقم (١) تاريخ، ورقة ١٠ب، غاية المرام، ج ٢/ص ٥٣٨.

وبما أن الصراع على الولاية في الحرمين الشريفين كان يتجدد بين حين وآخر طيلة فترة دراستنا، فإن العلماء كانوا كغيرهم من أهل الحرمين الشريفين عرضة للآثار السلبية المترتبة على ذلك، كذلك كان الحجاج ضحية المتخاصمين على الحكم فتنتهب أموالهم وتزهق أرواحهم، دون أي ذنب اقترفوه. (١)

ومن أسوأ ما حدث فيها من فتن في هذه الحقبة ما وقع سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م بين الأشراف أبونفي وإدريس، وجماز (٢) صاحب المدينة، وبين الأمير مبارز الدين بن برطاس (٣)، سفكت فيها الدماء بالحجر من المسجد الحرام، وأسر فيها ابن برطاس. (٤)

وفي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م وقعت بين الحجاج وأهل مكة فتنة، شهت فيها من السيوف نحو عشرة آلاف سيف بالمسجد الحرام، وقتل فيها من الفريقين نحو أربعين رجلاً. (٥)

(١) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٢٠، وأنظر كذلك، ج ٣/ص ٢٥٧، ج ٣/ص ٣٨٠، ج ٣/ص ٣٩٥.

(٢) جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني، أمير المدينة المنورة، كان شجاعاً مهيباً سياسياً حازماً ذا رأي وهمة عالية، وتولى أمر المدينة أول الأمر مشاركاً لأخيه منيف، ثم استقل بها بعد ذلك، وتوفي سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٤٣٦ - ص ٤٣٧).

(٣) علي بن الحسين بن برطاس الأمير مبارز الدين، أحد الأمراء الذين أرسلهم المظفر يوسف الرسولي صاحب اليمن إلى مكة، وقد تولى أمرها سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م بعد قتاله مع الأشراف، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٦/ص ١٥٢ - ص ١٥٣، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٧٧).

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٧٧.

(٥) ن. م. س. ج ٣/ص ١٢٠.

وفي سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م ثارت فتنة بين التكرارة^(١) والترك بالمسجد الحرام
شهرت فيها السيوف في المسجد الحرام، وكان ملك التكرور موسى بن أبي بكر الأسود
نازلاً بجانب رباط الخوزي، وأمر أصحابه بالكف عن القتال فكفوا عن ذلك.^(٢)

وفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وقعت فتنة بين الحجاج المصريين وأهل مكة، قتل فيها
جماعة من الطرفين، وعرفت هذه السنة بالسنة المظلمة.^(٣)

وفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وقعت فتنة بين أمير الحاج المصري جقمق المؤيدي
وجماسته وبين القواد العمرة^(٤)، وحصل فيها قتال بينهما انتهكت فيها حرمة المسجد
الحرام لما حصل فيها من القتال بالسلاح والخيل وإراقة الدماء فيه.^(٥)

(١) التكرارة: نسبة إلى بلاد التكرور: وهي دولة مالي بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة
وباء مثناه، وهي تقع في جنوب المغرب متصلة بالبحر المحيط، وحدودها من الغرب البحر
المحيط، ومن الشرق بلاد البرنو، وفي الشمال جبال البربر، وفي الجنوب الهمج، وهي شديدة الحر
قليلة الأقوات وأهلها طوال في غاية السواد، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥/ص ٢٧١).

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٧٩.

(٣) ن . م . س، ج ٣/ص ٢٢٤.

(٤) القواد العمرة: وهم أتباع الأشراف من بني الحسن، وقد ورد هؤلاء القواد أول الأمر بالملاعبة
والقواد الزبابعة، أما القواد العمرة فربما يرجعون إلى منصور بن عمر المكي الذي كان حياً سنة
٧٣٧هـ أحد أعيان القواد العمرة، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٧/ص ٢٨٥)، وقد أورد الفاسي
كثيراً منهم، العقد الثمين، ج ٤/ص ٦١٧، ج ٤/ص ٣٧٩، ج ٧/ص ١١١، ج ٧/ص ٣٦٥،
ج ٦/ص ١٧٥، ج ٤/ص ٦١٧، كما ورد في بعض الأحيان القواد الحميضة والقواد ذوي عجلان،
والقواد ذوي حسن، وهي نسبة إلى الأمراء حميضة وعجلان وحسن (النجم بن فهد: إتحاف
الوري، ج ٣/ص ٤١٠، ج ٣/ص ٥٤٢).

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥١٦ - ص ٥١٧.

كما عادت الخلافات والحروب بعد وفاة محمد بن بركات، وذلك بين ابنيه بركات^(١) وهزاع^(٢) من جهة وأحمد الجازاني^(٣) من جهة أخرى، فقد حصلت بينهما معارك عديدة كان أشدها ضرراً عندما دخل أحمد الجازاني مكة في أوائل سنة ١٥٠٢هـ/١٥٠٢م للمرة الثانية، وترك عسكره يعيشون في مكة ويفعلون أفعالاً قبيحة، حيث انتهكوا الحرمات، وصادروا أموال الأهالي والتجار.^(٤)

أما المدينة المنورة، فقد كان أمراؤها من بني مهنا الحسينيون.^(٥) ولم يكونوا على وفاق مع أمراء مكة، حيث حدثت بينهم عدة حروب^(٦)، بسبب ميل أمرائهم إلى أحد الأطراف المتنازعة في مكة^(٧)، بل وصل بهم الأمر إلى الإستيلاء على مكة بواسطة

(١) بركات بن محمد بن بركات، ولد سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م، واشترك مع أبيه، وتولى أمر مكة، من قبل السلطان الغوري، وتوفي سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م، أنظر ترجمته في (العصامي، عبدالمالك: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م)، ج ٤/ص ٢٨١، دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ٤٦، أبو الخير، عبدالله مرداد: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، تحقيق محمد سعيد العامودي، أحمد علي، الطبعة الثانية، (جدة، عالم المعرفة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦)، ص ١٤٢.

(٢) هزاع بن محمد بن بركات، وقعت بينه وبين أخيه بركات كثير من الحروب، وتوفي سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، (دحلان: خلاصة الكلام، ص ٤٦ - ص ٤٧).

(٣) أحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني، تولى أمر مكة سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، وعانت مكة كثيراً من حروبه، توفي سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، (دحلان، خلاصة الكلام، ص ٤٨).

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٣١ب.

(٥) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عني بطبعه ونشره، أسعد طرابزوني الحسيني (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج ١/ص ٧٨ - ص ٧٩.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢/ص ١٩٩، العز بن فهد: غاية المرام، ج ١/ص ٥٥٢.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٧٧ - ص ٩٩ - ص ١٠٣.

أميرهم جماز بن شيحة بن هاشم، وذلك سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م الذي استعان بالسلطان المنصور بن قلاوون لتأديب أمير مكة أبو نغمي. (١)

وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م تنازل جماز عن الإمارة لابنه منصور (٢)، وبعد وفاة والده وفد أخوه مقبل بن جماز على المظفر بيبرس (٣) بمصر، وأقنعه بإشراكه مع أخيه منصور في الإمارة فأجابته إلى ذلك، فضاقت منصور من هذا الإجراء، فاستخلف ابنه كبيشاً (٤) مكانه وتوجه إلى مصر لعله يستطيع إقناع السلطان بتنحية أخيه، إلا أن مقبلاً (٥) استغل غيابه وعزل ابن أخيه كبيشاً فقام كبيش باللجوء إلى قبائل البادية وأثارهم ضد عمه، واستطاع أن يقتله سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ثم أعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون منصور بن جماز إلى الإمارة سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، فاستمر بها إلى أن قتله ابن أخيه حذيفة بن جماز سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م (٦) فتولى الإمارة من بعده ابنه كبيش الذي قتل كذلك سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م على يد أبناء عمه مقبل انتقاماً لمقتل والدهم (٧)، ثم تنازع السلطة من

(١) النجم بن فهد : إتحاف الوري ، ج٣/ص١١٨، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٤.

(٢) أنظر ترجمته في ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٦٣، ومعظم تراجم أمراء المدينة وردت مختصرة في كتب التراجم.

(٣) ذكر القلقشندي أنه الظاهر بيبرس، والمعروف أن الظاهر بيبرس توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، (صبح الأعشى، ج٤/ص٣٤٠)، ونقل عنه معظم الباحثين ذلك، والمظفر بيبرس المنصوري هو من ممالك المنصور قلاوون، وكان يحكم مصر في الفترة التي كان فيها الناصر محمد بن قلاوون معتزلاً بالحكم، وتسلمن لمدة سنة واحدة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، (المقريزي: السلوك، ج١/٢: ص٤٥ - ص٥١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨/ص٢٣٢).

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج٣/ص٢٦٢.

(٥) أنظر ترجمته، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٣٥٦.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٥، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٣٦٣.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣/ص٢٦٢.

بعده طفيل^(١) بن منصور بن جمار وودى^(٢) بن جمار بن شيحة، وانتهى النزاع بينهما ب وفاة ودى سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢ م حيث استمر طفيل أميراً على المدينة حتى سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠ م فقبض عليه ونقل إلى القاهرة فأودع السجن إلى أن مات سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١ م.^(٣)

بعدها تولى إمارة المدينة عدة أمراء من أبناء جمار وأحفاده، وقعت فيها عدة فتن، منها فتنة سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١ م عندما رفض نعيم بن منصور^(٤) أن ينصاع لأمر السلطان ويسلم المدينة^(٥) لجماز بن هبة^(٦) بن جمار، ثم كانت فتنة سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧ م الذي نهب فيها على بن عطية^(٧) المدينة الشريفة، فغضب السلطان برقوق^(٨) وأفرج عن ثابت بن

(١) وصفه السخاوي بقوله: «كان خليقاً للملك، سلطاناً مهيباً، معظماً محبباً للرعية، عالي الهمة، كامل السؤدد، جم المناقب يوالي المجاورين، ويحسن إليهم»، التحفة اللطيفة، ج ٢/ص ٢٥٨، وأنظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢/ص ٢٢٣.

(٢) أنظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤/ص ٤٠٦.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢/ص ٢٢٣، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢/ص ٢٥٨.

(٤) توفي سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١ م، (السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٤٢٨.

(٥) ن. م. س. ج ١/ص ٤٢٧ - ص ٤٢٨.

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٤٢٧ - ص ٤٢٨.

(٧) ن. م. س. ج ٣/ص ٢٤١.

(٨) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص الجركسي، تولى سلطنة مصر في سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م، ومات سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨ م، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٣٥٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١/ص ٢٢١ - ص ٣١٨، ج ١٢/ص ١٦٧، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ص ١٠).

نغير^(١) وقلده إمارة المدينة.^(٢) واشتبك ابن نغير مع جماز بن هبة عندما هاجم المدينة المنورة في سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م^(٣)، ثم أنه في عام ٨١١هـ/١٤٠٨م عندما علم جماز بن هبة بولاية حسن بن عجلان للحجاز وعزله عن إمارة المدينة عمدهذا إلى نهب المسجد النبوي^(٤)، وفي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م قبض على الشريف خشرم^(٥) لأنه لم يستطع دفع ما التزمه للسلطنة بمصر^(٦)، فأمر الأشرف برسباي^(٧) بالقبض عليه وعيّن بدلاً منه مانع بن علي^(٨)، وتولى المدينة بعد ذلك كثرة من صغار الأمراء كانوا دائماً أشبه بالدمى في يد سلاطين مصر، يضرب بعضهم ببعض، ثم يولى من يدفع أكثر لخزينة السلطنة بمصر، فإذا تساوى في المقدار المعروض طلب إليهما أن يقتتلا والإمارة لمن غلب.^(٩)

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٣٩٦، الضوء اللامع، ج ٣/ص ٥٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٣٠٥، ابن حجر: أحمد بن علي: أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق حسن حبشي، (القاهرة، مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٩هـ)، ج ٢/ص ٢٥٢.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٣: ص ٧٩١.

(٤) ن.م.س، ج ١/٤: ص ٧٥ - ٧٦.

(٥) قتل سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، أنظر ترجمته في: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢/ص ١٨.

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٩٦، ج ٢/ص ١٨، المقرئزي: السلوك، ج ٢/٤: ص ٧٥٦.

(٧) الملك الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري، تولى السلطنة في سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م، وفي عهده فتحت قبرص، توفي سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤/ص ٢٤٢، ج ١٥/ص ١١١، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ص ٨ - ١٠، ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، (القاهرة، ١٩٦٠م - ١٩٦٣م)، ج ٢/ص ٨١.

(٨) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٤: ص ٧٥٦، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢/ص ١٨.

(٩) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٤٢٨، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ٥٠.

أما مدينة جدة، فهي الثغر العمومي للحجاز منها صادراته وإليها وارداته، وتزدهر التجارة فيه أيام الحج، وكانت جدة تتبع إدارياً لأمير مكة، وفيها كانت تؤخذ المكوس^(١) من الحجاج والتجار القادمين بطريق البحر.^(٢)

وقد بلغت جدة أوج ازدهارها في بداية القرن التاسع الهجري^(٣)، ففي سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م وصلت مراكب التجار إلى جدة، وأخذ منهم أمير مكة حسن بن عجلان مكساً مقداره عشرة آلاف دينار^(٤)، وظل أمير مكة يأخذ العشور^(٥) من التجار حتى سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م حيث أرسل السلطان برسباي رجلاً من قبله ليحمل إليه نصيبه من المكوس، فبلغ ما حصله تلك السنة سبعين ألف دينار^(٦)، ومنذ ذلك التاريخ أصبح السلطان شريكاً لأمير مكة في المكوس التي تؤخذ من التجار القادمين إلى جدة، واتخذ السلطان عدة إجراءات صارمة تنظم الأمور لهذا الميناء التجاري، وصار نظر^(٧) جدة

(١) المكوس: جمع مكس، ومعناها في اللغة: الضريبة التي تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق أيام الجاهلية، كما تطلق على ما يأخذه المعشار، ويقال له الماكس، (المقرئزي: السلوك، ج ١/٢: ص ٢٦٧ الهامش، وأنظر كذلك: المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، القاهرة، مجمع اللغة العربية، بدون ت)، ج ٢/ص ٩٦، وانظر أنواع المكوس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣/ص ٥٣٦.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١/١: ص ٦٤، ج ٢/٤: ص ٦٨١ - ص ٦٨٢، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٢٤ - ص ٥٥٥، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٩١.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٤: ص ٦٨١.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٦٥.

(٥) العشور: مفرداها العشر: وهي الرسوم التي تؤخذ على الأموال، (أبويوسف، يعقوب بن إبراهيم: الخراج، تحقيق، محمد إبراهيم البنا، دار الإصلاح للطبع والنشر، بدون ت)، ص ٣١.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٦٢٠ - ص ٦٢١.

(٧) الناظر (نظر) - وهو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله، فيمضي ما يمضي ويرد ما يرد، ثم هو يختلف باختلاف ما يضاف إليه كناظر الجيش وناظر الدواوين وناظر الأوقاف أو جهات البر، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٩ - ص ٣٥، ج ٥/ص ٤٣٧).

وظيفة سلطانية يخلع على متوليها، ويتوجه في كل سنة إلى مكة وقت ورود المراكب إلى جدة ويأخذ ما على التجار من العشور ويحمله إلى خزينة السلطنة بمصر. (١)

كما تأثرت جدة بالصراع الدائر بين الأشراف، فقد نالها ما نال مكة، لأنها كانت تابعة لها، ومن ذلك ما حدث سنة ٧٨٩هـ/١٣٧٨م عندما جمع (٢) كبيش بن عجلان جماعة من البادية للإنتقام من أمير مكة الجديد المدعوم من السلطان، فأغار على جدة ونهبها وأخذ منها ثلاثة مراكب للتجار كانت متوجهة إلى مصر (٣)، وحدثت بين كبيش وأمير مكة عنان (٤) عدة مناوشات انتهت بمقتله. (٥) كما تعرضت جدة لغارات قبائل بني إبراهيم (٦) ما بين سنوات ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، ٩١٣هـ/١٥٠٧م (٧) وذلك بمساعدة من

(١) الظاهري: زبدة الممالك، ص ١٤، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٦٢١.

(٢) كبيش بن عجلان بن رميثة، يكنى أبا الفوز، كان ينوب في إمرة مكة عن أبيه وأخيه أحمد، ومشهوراً بوقار رأيه وشهامته وكفائته، قتل سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٧/ص ٨٥ - ص ٩٠).

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٧/ص ٨٨، ابن حجر: أنباء الغمر، ج ٢/ص ٢٥٠ - ص ٢٥١، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٦١ - ص ٣٦٢.

(٤) عنان بن مغامس بن رميثة، يلقب بزين الدين، ولي أمر مكة مرتين ومجموعها ثلاث سنوات، وكان كثير الشجاعة والكرم، عالي الهمة، قليل الحظ في الإمرة، توفي سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٦/ص ٤٣٠ - ص ٤٤١).

(٥) ابن حجر: أنباء الغمر، ج ٢/ص ٢٥١.

(٦) اختلف في نسب هذه القبيلة، فقد ذكر كحالة أنهم من الأشراف من سلالة السبطين الحسن والحسين، (معجم قبائل العرب، ج ١/ص ٢)، بينما يذكر البلادي: أنهم بطن من بني مالك من جهينة كان لهم خطر قبل القرن العاشر الهجري، وديارهم ينبع النخل وما حولها، (معجم قبائل الحجاز، مكة، دار مكة، ١٣٩٨هـ/١٣٩٩م)، ص ١١ - ص ١٢، قلب الحجاز، بحوث جغرافية وتاريخية وأدبية، الطبعة الأولى، (مكة، دار مكة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ١٦٥، والأخير هو الأرجح.

(٧) أنظر حوادث هذه السنوات في: العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٩٢ب - ورقة ١٣٧ب.

أمير ينبع يحيى بن سبيع وأمير خليص مالك بن نورية، إذ قتلت الأهالي ونهبت الأموال، كما قتلت الحجاج وسلبت قوافلهم^(١)، مما جعل السلطان الغوري^(٢) يرسل الحملات إلى هذه القبائل للقضاء عليها.^(٣) كما قام أولاً ببناء أبراج لمدينة جدة سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م^(٤)، ثم قام ببناء سور لها سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م وانتهى الممالك من بنائه سنة ٩١٧هـ/١٥١١م^(٥) الذي كان له دور كبير في رد هجوم البرتغاليين سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م أي بعد سقوط دولة الممالك.^(٦)

أما مدينة ينبع فقد كانت بيد الأشراف الحسينيين من بني قتادة، وهي تسمى نيابة ولا تسمى إمارة تصغيراً لشأنها عن مكة والمدينة^(٧)، وكانت المكوس التي تفرض على المراكب القادمة إليها تؤول إلى أميرها.^(٨)

(١) دحلان: خلاصة الكلام، ص ٤٧.

(٢) قانصوه الغوري: آخر السلاطين المماليك، فقد في حرب السلطان سليم العثماني، ولم يظهر له خبر، (العيدروسي: النور السافر، ص ١٠٠) وقيل أنه قتل سنة ٩٢٢هـ.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ج ١/ص ٧٩١، ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤/ص ٥٤، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ٥٣ - ٥٤.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٦٦أ.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٢٠١ب، ورقة ٢٠٢أ، النهر والي، قطب الدين المكي الحنفي: الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٢٥، ابن فرج، عبدالقادر بن فرج بن أحمد الشافعي، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق أحمد عمر الزيلعي، ريكس سميث، (الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ٢٨ - ٣٠، الأنصاري، عبدالقدوس: تاريخ مدينة جدة، الطبعة الثالثة، (القاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ٢٩٨.

(٦) الأنصاري: تاريخ جدة، ص ٧٠، السليمان، العلاقات الحجازية المصرية، ص ٧٠.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٨٩، ج ١٢/ص ٢٥٧.

(٨) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٦.

وقد تعرضت ينبع كثيراً للفتن والقلقل شأنها شأن مكة والمدينة، حيث كانت تابعة إدارياً لأمير مكة^(١)، ومنها ذلك الدمار الهائل الذي أحدثه الخلاف على الإمارة بين الشريف مقبل^(٢) الحسني وابن أخيه عقيل بن وبير الحسني^(٣)، وقد تدخل أمير مكة حسن بن عجلان في هذا الصراع سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م^(٤) وسنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م^(٥)، كما تدخل أمير الحاج المصري قرقماس^(٦)، حيث سهل له الأمر حين قدومه إلى سلطان مصر بأن يكون مقبل شريكاً لابن عمه عقيل بن وبير.^(٧)

وفي سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م توفي الشريف دراج^(٨) أمير ينبع، فحصل نزاع على الإمارة بين أبنائه وبين أبناء الشريف سبع، ومنهم يحيى بن سبع الذي طالب بالأمانة، ولم يلب طلبه في أول الأمر، فقطع طريق الحجاج بعجروود^(٩)، ومنع عنهم الماء، فاضطر

(١) الجاسر: بلاد ينبع، ص ٣٢ - ص ٦٧.

(٢) مقبل بن مخبار، توفي سنة ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠/ ص ١٦٧).

(٣) عقيل بن وبير بن مخبار بن مقبل الحسني، توفي سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥/ ص ١٤٩).

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ ص ١٤٢، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ ص ٥٨٦.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ ص ١٤٤، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ ص ٥٩٢.

(٦) قرقماس الشعباني الظاهري، برقوق ثم الناصري، ويعرف بقرقماس، أهرام ضاع يعني جبل الأهرام، لتكبره، توفي سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦/ ص ٢١٩).

(٧) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ ص ١٤٧، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ ص ٥٩٦.

(٨) دراج بن معزي الحسني: أمير ينبع، استقر في أواخر سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م، عقب أميرها سبع نيابة عن صاحب الحجاز حين فوض إليه الأمر، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ ص ٢١٧).

(٩) عجرود: منزل في طريق الحاج المصري، وهي إلى الغرب من السويس على مسافة ٢٠ كيلو متراً، بكر، سيد عبدالمجيد: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، الطبعة الأولى، (جدة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص ١٠٦.

السلطان إلى تأميره على ينبع سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م^(١)، ولكنه أضمر الحقد في نفسه، وقام بضروب من العبث والفساد والقتل، حتى أرسل إليه السلطان الغوري قوة هزمته سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م^(٢) ثم تبعها قوة أخرى سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م^(٣) أنزلت بابن سبع وجماعته هزيمة ثانية كانت أشد من الأولى، ولم تفق ينبع من هذه الكارثة حتى سقطت الدولة المملوكية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م - ٩٢٣هـ/١٥١٧م)^(٤).

أما الطائف فإن المصادر لاتسعننا في الحديث عنها من الناحية السياسية لندرة المادة التاريخية، حيث ركزت المصادر الأولية على مكة والمدينة، دون الإهتمام بالأطراف أو الأقاليم البعيدة، وكل ما نعرفه عنها سياسياً، أنها كانت خاضعة في معظم الأحوال لحكم الأشراف في مكة^(٥) ويعين نوابها من قبل أمير مكة^(٦)، وكان أهلها يؤدون الجباية لأمير مكة، ومثال ذلك:

يذكر لنا ابن فهد في حوادث سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م أن أمير مكة حسن بن عجلان توجه إلى الطائف وخرّب أماكن فيها، وسبب ذلك توقف أهل هذه الأماكن عن تسليم ما قرره عليهم من الجباية^(٧).

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٩١.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٦٠ أ - ورقة ١٦٠ ب.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤/ص ٩٥، الجزيري: الدرر الفرائد، ج ١/ص ٧٩١، الجاسر: بلاد ينبع، ص ٥٨ - ٥٩، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٩١.

(٤) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٩١.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، (بيروت، دار المعرفة، بدون ت)، ج ١٥/ص ٥٧.

(٦) الفاسي، العقد الثمين، ج ٧/ص ٤٦، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٢، العز بن فهد: غاية المرام، ج ١/ص ٥٥٨.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٥٧ - ص ٥٥٨.

ب - الحياة الاجتماعية:

كان المجتمع الحجازي في عصر المماليك يتألف من طبقات ثلاث:

أ - الأشراف: وهم الأمراء أحفاد قتادة بن إدريس الحسني في مكة وينبع. (١)
وأحفاد جماز بن شيحة الحسيني في المدينة المنورة. (٢)

ب - القواد: وهم من أتباع أمراء مكة وأكثرهم من بني الحسن أشراف مكة، ويعبر عن أكابريهم بالقواد (٣)، مثل القواد العمرة والحميضات وغيرهم، وكانوا قوة يحسب حسابها في مكة، تستطيع ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة على الإمرة. (٤)

ج - أما الطبقة الثالثة فتكون بقية فئات المجتمع من علماء وطلاب علم وتجار وحرفيين وفلاحين وبدو رحل ... إلخ، ومن هؤلاء السكان المجاورون الذي وفدوا من جميع أنحاء العالم الإسلامي بقصد المجاورة والإقامة في الحرمين الشريفين، وصاروا بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الحجازي، أدى دوره في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبرز بشكل خاص في النواحي العلمية.

تلك هي صفة المجتمع الحجازي، خليط من عدة جنسيات مميّز في تركيبه الاجتماعي من بين جميع مدن العالم بسبب وجود الحرمين الشريفين.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٢٧، العز بن فهد: غاية المرام، ج ١/ص ٥٦٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٣) ن. م. س. ج ٤/ص ٢٨١.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٧١، ج ٣/ص ٢٩١، ج ٣/ص ٣٥٧.

ولعل أفضل المعلومات التي تفيدنا لكيفية الحياة الاجتماعية في مجتمع الحجاز نجدها في كتب الرحالة المسلمين الذين عايشوا أهل الحجاز في ذلك العصر، أمثال: ابن جبير، وابن بطوطة، والعبدري، وغيرهم، فقد زار مكة في العصر المملوكي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م الرحالة الشهير ابن بطوطة وأعطانا وصفاً مفصلاً عن العادات الاجتماعية في مكة المكرمة، نستخلص منها.، اهتمام أهلها البالغ بالتأنق في الملبس والمأكّل والمشرب، ويشير إلى أن ملابسهم دائماً نظيفة ناصعة البياض، كما كانوا يقومون بإكرام الضعفاء والمنقطعين بتقديم الطعام إليهم، ووصف نساء مكة بأنهن فائقات الحسن بارعات الجمال، يقصدن الطواف بالبيت الحرام كل ليلة جمعة. (١)

وذكر أن أهل مكة لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر، ولذلك صحت أبدانهم وقلّت فيهم الأمراض والعاهات. (٢)

ومن عادات أهل مكة أن تضرب الطبول على باب أميرها عند صلاة المغرب من كل يوم. (٣)، وقد ذكر ابن جبير وابن بطوطة كثيراً من عادات أهل مكة واحتفالاتهم الدينية في القرنين السابع والثامن الهجريين، منها احتفالاتهم في استهلال الشهور (٤)،

(١) أبو عبدالله محمد بن عبدالله: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ص ١٤٣.

(٢) ن. م. س. ص ١٤٥.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٤٢.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ١٠١ - ص ١٠٢، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٥٥.

وعاداتهم إذا هلّ هلال رجب^(١)، وعمره رجب^(٢)، وليلة النصف من شعبان^(٣)، وشهر رمضان^(٤)، وشهر شوال^(٥)، وشهر ذي الحجة^(٦)، إذ كانت تدق فيها الطبول، وتوقد فيها المشاعل في المسجد الحرام، وتقام فيها الأعياد.

وكانت حياتهم مستقرة هادئة مليئة بالبهجة والسرور، إلا أن غمامات الحزن والخوف والرعب، كانت أحياناً تعكر صفو هذه المدينة، بسبب خلافات أمرائها المستمرة، وبسبب أزمة القحط والسيول والأوبئة، كما سنرى في الحالة الاقتصادية.

أما أهم المنشآت الاجتماعية التي قام بتعميرها سلاطين المماليك وأمراؤهم وغيرهم من الحكام المسلمين في الحجاز، فهي الإكثار من تعمير العيون والأسبلة والآبار، لتوفير الماء للسكان والحجاج، فقد أجرى الأمير جويان^(٧) نائب السلطنة بالعراق من قبل

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٠٦، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٥٧.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ١٠٨، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٥٨.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ١١٣، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٦١.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ١١٤، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٦٣.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ١١٥، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٦٤.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص ١١٥، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٦٤.

(٧) جويان بن تدوان، نائب السلطنة بالعراقيين، وتولى ذلك نيابة عن السلطان أبي سعيد بن خريندا، ثم تغير عليه السلطان فقتله سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، وله الكثير من المآثر بالحرمين، (أنظر ترجمته في: الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٤٤٦ - ص ٤٤٧، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١/ص ٥٤١، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١/ص ٢٥٣، النجوم الزاهرة، ج ٩/ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ص ٨١).

السلطان أبي سعيد بن خريندا^(١) ملك التتار، عين بازان في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وعمّ نفعتها على جميع الناس لأنهم كانوا في جهد ومشقة لقلّة الماء، وصرف على عمارتها مائة ألف درهم^(٢)، وفي سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م بعث بركة بن عبدالله العثماني^(٣) أميراً يقال له سودون باشة لعمارة عين بازان^(٤)، كما عمرها أمير مكة حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م، واستمر جريانها إلى سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م^(٥)، فقل مأواها وعمرها الملك المؤيد أبو النصر^(٦)، حينما ندب القائد علاء الدين^(٧) لإصلاحها، فعمرها سنتي ٨٢١هـ/١٤١٨م و ٨٢٢هـ/١٤١٩م.^(٨)

(١) أبو سعيد بن خريندا بن أرغون بن ابغا بن هولكو، ملك التتار صاحب العراق، والجزيرة وخراسان والروم، أقام في الملك عشرين سنة، وحسن إسلامه، توفي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١/ص ٥٠١).

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ٥٥٤، المقرئ: السلوك، ج ١/٢: ص ٢٧٤ - ص ٢٧٥، النجم ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٨١، وأضاف خمسين ألف درهم على المائة.

(٣) هو الأمير زين الدين، رأس نوبة النوب بالقاهرة، وله مآثر بمكة، قتل سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٣٦١ - ص ٣٦٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١/ص ٢٠٤).

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٣٦٢، وتسمى أيضاً بعين حنين، (النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٦٠).

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ٥٥٥.

(٦) السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري، رابع السلاطين السلاجقة، والثامن والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، تولى السلطنة بعد عزل الخليفة المستعين بالله أبي الفضل العباسي من السلطنة في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، وتوفي سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣/ص ١ - ص ١٠٩).

(٧) علاء الدين بن اللفت، ولي الوزارة بالديار المصرية، وشهد الدواوين مراراً، توفي سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ١١/ص ١٦٢ - ص ١٦٣).

(٨) الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ١٢٧، شفاء الغرام، ج ١/ص ٥٥٥ - ص ٥٥٦، الزهور المقتطفة، ورقة ٧٢، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٦٠ - ص ٥٦٦.

ومن العيون التي أجريت بمكة عين أجراها الملك الناصر محمد بن قلاوون في مجرى عين بازان، وتعرف بعين جبل ثقبه، وذلك في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م^(١)، وتبعه في ذلك أبناءه من بعده فقام نائب السلطنة أيام الصالح بن الناصر^(٢) بتعمير بركة السلم سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وعمر القنوات التي يصل بها الماء إليها بطريق منى^(٣)، وعمر كذلك عين أجراها من منى إلى بركة السلم بطريق منى.^(٤)

كما قام الكثير من هؤلاء السلاطين والأمراء بإنشاء الأسبلة في الأماكن المقدسة لسقاية الناس، وأهم هذه الأسبلة :

١ - سبيل الزنجيلي: ويقع خارج باب الشبكة في جهة طريق التنعيم، على يمين المار إلى العمرة، وقد عمره الأمير فخر الدين المعروف بالزنجيلي^(٥) نائب عدن للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، وقد عمره من بعده تاجر حضرمي من أهل عدن، ويعرف بأبي راشد^(٦)، وعمره بعده الشهاب بركوت المكين.^(٧)

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ٥٥٦ - ٥٥٧، العقد الثمين، ج ١/ص ١٢٧.

(٢) هو الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، تسلطن بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد في سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، واستمر في السلطنة حتى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، وكان مشكور السيرة، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١/ص ٣٨٠، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١/ص ١٢٩، النجوم الزاهرة، ج ١٠/ص ٧٨ - ص ١٤٢).

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ٥٤٢، العقد الثمين، ج ١/ص ١٢٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرم، ج ١/ص ٥٥٧.

(٥) سيأتي الحديث عنه في المدارس.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦/ص ٣٤.

(٧) بركوت شهاب الدين، عتيق سعيد المكي، اليمني، كان حبشياً كثير الأفضال محباً لأهل العلم، وأهل الخير، كثير البر لهم والتلطف بهم، لقي حظاً عظيماً من الدنيا، وتنقلت به الأحوال، وبنى بعدن أماكن عديدة، ثم تحول إلى مكة وسكنها، وبنى بها داراً عظيمة، وله الكثير من الآثار في مكة، توفي بعدن سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ص ١٥).

٢ - سبيل الملك المؤيد شيخ صاحب مصر الذي يقع بالقرب من بئر زمزم، وقد انتهى من عمارته سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م وهو على شكل بيت مربع له ثلاثة شبابيك، تحت كل شباك حوض، وفيه بركة حاملة للماء. (١)

٣ - سبيل الست، وهو بطريق منى، وقد عمرته زهراء بنت السلطان محمد بن قلاوون أثناء قدومها للحج سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م. (٢)

٤ - سبيل بالمعلاة للقاضي الأشرف زين الدين عبدالباسط (٣) ناظر الجيوش المنصورة، وقد أنشأه سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م (٤)، وقد ذكر الفاسي كثيراً من هذه السبل التي قام بإنشائها السلاطين والأمراء وغيرهم.

هذا وقد قام كثير من السلاطين والأمراء وغيرهم، بأعمال البر والإصلاحات والعمائر في الحرم المكي الشريف، بالإضافة إلى كثير من المؤسسات الاجتماعية التي

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ٤٠٣ - ص ٤٠٤.

(٢) ن. م. س. ج ١/ص ٥٤٠، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٨٦.

(٣) زين الدين عبدالباسط بن خليل الدمشقي القاهري، ولد سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بدمشق، وله المآثر والقرب المنتشرة بأقطار الأرض ما يفوق الوصف، وأصلح كثيراً من مسالك الحجاز، وقد أعطاه السلطان المؤيد نظر الخزانة، وحصل له قرية عند سلاطين المماليك، وكان ناظر الجيوش أيام الظاهر ططر، والأشرف برسباي، وابنه العزيز، وجقمق، من سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م حتى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤/ص ٢٤ - ص ٢٥)، وقد ذكر السليمان، أن الزيني عبدالباسط كان ناظر الجيوش في دولة الناصر محمد، وأنه أنشأ سبيلاً بالمعلاة لمولاه، كما قام بإنشاء سبيل بالمعلاة باسم أخت الناصر محمد سنة ٧٦١هـ، (العلاقات الحجازية المصرية، ص ٢١٧)، وقد جانبه الصواب في ذلك كما هو واضح من ترجمة الزيني عبدالباسط، ويبدو أن أسلوب الفاسي في إيراد الأسبلة جعله يقع في ذلك، (العقد الثمين، ج ١/ص ١٢٤).

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١/ص ٥٣٩، كما ذكره في: العقد الثمين، ج ١/ص ١٢٤، ولم يذكر سنة الإنشاء.

أنشأها سلاطين المماليك وأمرأؤهم مثل المدارس، والأربطة، والبيمارستانات، التي سيأتي الحديث عنها في ثنايا البحث.

أما المدينة المنورة فإن التركيب الاجتماعي فيها لا يختلف عن مكة، فهي تضم جميع الجنسيات ولهم عادات وتقاليد حسنة منها:

استقبالهم للزوار من خارج المدينة، من غير سابقة معرفة بهم، وقد حدثنا عن ذلك الرحالة ابن رشيد^(١) الذي زار المدينة سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وقال: «وفي عشي يوم السبت الثاني والعشرين من ذي القعدة تلقانا قريب العصر أهل المدينة على ساكنها الصلاة والسلام مبشرين بالوصول إلى حضرة المصطفى الرسول، وجالبين من تمر المدينة ما يتحفون به القادمين ملتهمسين رفدهم، وقد صنعوا عصياً في أطرافها أوعية صفار، فيجعلون فيها شيئاً من التمر ويناولونه إلى الركبان .. على حكم التحفة والهدية .. وقد رأيتهم يحنكون به الأطفال الصغار التماساً للبركة».^(٢) وقد أكد البتنوني^(٣) هذه العادة القديمة حين زيارته للمدينة.^(٤)

(١) هو محمد بن عمر بن محمد أبو عبدالله، محب الدين ابن رشيد الفهري السبتي، رحالة، عالم بالأدب، عارف بالتفسير والتاريخ، ولد بسبته سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، رحل إلى مصر والشام والحرمين، وله الكثير من الكتب في النحو، توفي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤/ص ١١١ - ص ١١٢).

(٢) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيعة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق، محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨)، ج ٥/ص ١٦.

(٣) هو محمد ليبب البتنوني، نسبة إلى «البتنون» من بلاد المنوفية بمصر، كاتب، فاضل، له اشتغال بالأدب والتاريخ، وحج بمعية الخديوي عباس باشا حلمي سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وعمل كتابه «الرحلة الحجازية»، (البتنوني، محمد ليبب: الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، (الطائف، مكتبة المعارف، بدون ت)، مقدمة الناشر، ص أ.

(٤) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص ٢٦٠.

ولهم عادات دينية راسخة، فهم يتناولون إفطاراً خفيفاً عند المغرب في شهر رمضان بالمسجد النبوي فقراء وأغنياء، ثم ينصرفون إلى صلاة المغرب، ويعودون بعدها إلى بيوتهم ليفطروا الإفطار الثاني، ثم يعودون لصلاة العشاء والتراويح.^(١)

أما صلاة العيد فيصلحها بالمسجد النبوي أئمة الإمامية والشافعية والأحناف، إلا أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أصدر أمراً بعدم السماح لآل سنان^(٢) من الإمامة بالصلاة في المسجد النبوي سنة ٧٣١هـ / ١٣٣٠م^(٣)، ثم انتهت إمامتهم فعلياً من المدينة سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م بالتعاون بين الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون^(٤) وأمير المدينة سعد بن ثابت بن جماز^(٥)، الذي ضاق بسيطرة القضاة والأئمة الشيعة من آل سنان.^(٦)

«ولأهل المدينة المنورة عادات وتقاليد في الولادة والزفاف والوفاة، فهم في الوفاة يتبعون أهل السنة، فإذا فاضت روح الميت لا يرفع صوت ولا يشق جيب».^(٧)

أما مدينة جدة فإن موقعها الإستراتيجي المهم، وغوها المستمر خاصة في بداية القرن التاسع الهجري، أحدث فيها تغيرات مهمة في تركيبها الاجتماعي.

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص ٢٦١.

(٢) هو سنان بن عبد الوهاب بن نيله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الوهاب الحسيني، أول أمراء المدينة من الشيعة، وتبعه ذريته في القضاء والإمامة (السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢ / ص ١٩٥ - ص ١٩٦).

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣ / ص ١٤٩.

(٤) الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، حتى سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م، ثم أعيد سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وبقي حتى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م، (ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤ / ص ٢٣٦، ص ٢٦٣، ص ٢٩٠، وانظر كذلك: المقرئ: السلوك، ج ٢ / ص ٧٤٥ - ٨٤٣).

(٥) سعد بن ثابت بن جماز بن شيحة، ولي أمر المدينة سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م، بعد طفيل بن منصور، أحمد كثير من البدع في الحرم النبوي الشريف، وابتدأ في عمل خندق للمدينة، ولكنه توفي سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠م، (السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢ / ص ١٢٥ - ص ١٢٦).

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢ / ص ١٢٥ - ص ١٢٦.

(٧) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص ٢٦١.

فقد تهيأت فيها فرص كثيرة للعمل شجعت على الإستقرار والإقامة بهذه المدينة التجارية، حيث كثر فيها الفرس والحضارم والهنود والبخاريين، حتى شكلوا ثلث سكانها تقريباً. (١)

أما ينبع فلا شك أن الصلة التجارية التي كانت بينها وبين موانيء مصر في ذلك العصر، جعلت أكثر سكانها من الأسر العربية التجارية، التي انتقلت من مصر ومن الصعيد بالذات واستوطنت ينبع (٢)، ونقلوا عاداتهم وتقاليدهم إلى هذه المدينة.

أما الطائف فإن سكانها كانوا من قبيلتي ثقيف وهوازن (٣)، وبعض قبيلتي قريش وهذيل (٤)، وبجيلة (٥)، والسراة وزبهم في المأكل والملبس مثل أهل مكة. (٦)

وقد وصف ابن المجاور إحدى عاداتهم بقوله: «وللقوم عصبية عظيمة إذا مات بها أحد، لم يحمل جنازته إلا الشبان ... وهم يتداولون النعش ... وهم الذين يحفرون القبر». (٧)

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص ٩ - ص ١٠.

(٢) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص ١٢٨ - ص ١٣٠، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٩٠.

(٣) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص ٨٠.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٥، ياقوت: معجم البلدان، ج ٤/ص ٩.

(٥) بجيلة: قبيلة عربية كبيرة، مواطنها سروات اليمن والحجاز من جنوب الطائف إلى تباله، ذكرهم ابن جبير في رحلته فقال: بجيلة إحدى قبائل السراة التي تفد إلى مكة في الحج بالميرة والخيرات، ثم اختفى اسم بجيلة القبيلة وبقي علماً على موضع جنوب الطائف على قرابة ١٢٠ كيلاً، في بلاد بني مالك، (البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص ٣٠ - ص ٣١)، وقد ذكرها الفاسي، وقال: «قرية بالبادية حول الطائف» (شفاء الغرام، ج ٢/ص ٢٤٩).

(٦) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٥.

(٧) ن. م. س، ص ٢٥.

كما وصف ابن بطوطة سكان بجيلة وزهران وغامد^(١) بأنهم «فصحاء الألسن، لهم صدق نية، وحسن اعتقاد ... وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم»^(٢).

جـ- الحياة الاقتصادية:

للحجاز بيئة خاصة ومميّزة اختلفت عن معظم بلدان الجزيرة العربية، فهو يجمع السهول، والجبال والمنخفضات، والحرات والأودية والصحاري كلها جنباً إلى جنب.

فمكة منخفضة وتحيط بها الجبال ويغلب عليها القبيض والحرارة طوال العام تقريباً ما عدا فصل الشتاء وبجوارها الطائف مرتفعة فوق جبال السراة ومعتدلة الجو وهواءها عليل ونجد السهول ناحية البحر الأحمر، وهي فقيرة النبات، ثم تجد بعض المناطق قرب المدينة النبوية غنية بنباتاتها.

هذا التباين والإختلاف في البيئات في الحجاز جعلها مختلفة كذلك في الموارد، وبالتالي وقع اختلاف في الحرف العامة لدى سكانه.

وقد كان لقلة الموارد في مكة وعدم ملائمتها للزراعة دور كبير في اتجاه أهلها إلى التجارة واعتمادهم عليها في معاشهم، كما أن هناك الكثير من القبائل التي توزعت في مختلف بلاد الحجاز وامتهنت الرعي والصيد والزراعة.

(١) غامد: قبيلة من عسير تحيط بها من الشمال الشلاوة، ومن الشرق شمران، ومن الجنوب بلقرن، ومن الغرب، زبيد وزهران، ومقر غامد الباحة، (كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٢١٧ الهامش).

(٢) تحفة النظار، ص ١٦٠.

وكانت موارد مكة الرئيسية في العصر المملوكي تتركز في عدة مصادر منها:

١- ما يتفقه الحجاج في مواسم الحج :

حيث يعد هذا المصدر مورداً مالياً اعتمدت عليه مكة في اقتصادها، وكان لسلطين المماليك دور كبير في رواج موسم الحج، لما قدموه من مساعدة في تحسين طرق الحج وإقامة المرافق^(١) من حفر الآبار وبناء المنازل والخانات وغير ذلك، تسهيلاً لقدم الحجاج إلى مكة.^(٢)

٢- المكوس والجباية :

وهذا المورد خاص بأمراء مكة الذين كانوا يفرضونه على الحجاج والتجار والمناطق المجاورة لمكة، مثل الطائف وجدة ، لذلك، فقد قام كثير من سلاطين المماليك بمنع أمراء مكة من أخذ المكس من الحجاج والتجار، وتعويضهم بتقديم الهدايا والهبات والرواتب السنوية^(٣)، كما قاموا بإسقاط المكس عن المأكولات التي كان يجلبها التجار والحجاج وأهالي المناطق المجاورة بمكة.^(٤)

(١) لمزيد من التفصيل، انظر، جلال، آمنة حسين محمد: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، (رسالة دكتوراة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، غير منشورة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(٢) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٧٢.

(٣) الفاسي العقد الثمين، ج ٤/ص ٤١٧، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٩٣، ص ٢٢٧، ص ٣٠٣.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٩٣، ص ١٧٦، ص ٢٧٧.

٣. التجارة الداخلية والخارجية:

اعتمدت مكة في مصادرها الغذائية على ما يأتي به أهالي القرى المجاورة لها، خاصة وادي مَرٍّ^(١)، ووادي نخلة^(٢)، حيث تأتي منهما الفواكه والخضروات^(٣)، كما كانت الطائف منذ القدم تمد مكة بالفواكه^(٤)، وكذلك أهالي جبال السراة من غامد وزهران وبجيلة الذين يحملون معهم الحبوب والسمن والزبيب والزيت واللوز^(٥)، بالإضافة إلى ما يزرع في مكة من حبوب وشعير وسلت^(٦)، وجميعها يزرع على المطر.^(٧)

(١) وادي مَرٍّ: بالفتح ثم التشديد، هو مر الظهران، موضع على مرحلة من مكة، له ذكر في الحديث، وبه عيون كثيرة، (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥/ص ١٠٤)، ويسمى اليوم وادي فاطمة ويبعد عن مكة ٢٤ كيلو متراً، على جادة المدينة المنورة، (البلادي: معجم معالم الحجاز، (مكة، دار مكة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج ٨/ص ١٠٠ - ص ١٠٥).

(٢) وادي نخلة: نخلة الشامية أحد رافدي مَرٍّ الظهران، ونخلة اسم لعدد من المواضع في الحجاز، (ياقوت، معجم البلدان، ج ٥/ص ٢٧٧، البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية، الطبعة الثانية، (مكة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٢٥٨ - ص ٢٥٩).

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٩٧، ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ١٢٤، ص ١٢٦.

(٤) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ٢٧٤، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩، ابن جبير: الرحلة ص ١٢٢.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ٩٦ - ص ٢٧٤، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٦٠.

(٦) السلت: بضم السين، ضرب من الشعير، وقيل هو الشعير الحامض، وقال الليث السلت شعير لا قشر له أجرد، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز، (ابن منظور: لسان العرب، ج ٢/ص ٤٧).

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٥٣.

واعتمدت في مصادرها الخارجية من المواد الغذائية وغيرها من السلع على ما يأتيها من بلاد اليمن^(١)، والهند^(٢)، ومصر، وبلاد السودان والحبشة^(٣)، وبلاد الأندلس والمغرب^(٤)، وغيرها، سواء عن طريق البر أو البحر، لذلك صارت مكة سوقاً مزدهرة، وكان ما يجلب إليها يفوق عشر مدن من أمثالها في عدد السكان، فكل ما يحتاجه الحاج يجده فيها.^(٥)

ومن الأسواق المنتظمة في مكة، سوق كان على طول الصفا والمروة، ذكره ابن جبير وغيره من الرحالة المسلمين، يباع فيه الحبوب واللحوم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، وكان شديد الزحام، كما كان للبزازين والعطارين سوق عند باب بني شيبه^(٦)، وكذلك أقيمت الأسواق المتنقلة في موسم الحج في منى وعرفات، وبيعت فيها جميع السلع والمواد الغذائية.^(٧)

كما كانت ترد إلى مكة سلع عديدة ومتنوعة، ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار الكريمة والألماس والرياش والفراش، بالإضافة إلى أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود، وأنواع البخور وغيرها من البضائع.^(٨)

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٣٤، ص ٤٤١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٨١.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٤٠، ص ٤٤١، العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٦٩ ب.

(٤) ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي، ص ١٣٥.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ٩٧، البلوي، خالد بن عيسى: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق حسن السايح (المغرب، بدون ت)، ج ١/ص ٣٠٧.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص ٨٥، العبدري، أبو عبدالله محمد بن محمد: الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، (الرباط، ١٩٦٨ م)، ص ١٧٦، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٣٦.

(٧) ابن جبير: الرحلة، ص ١٦٠، العبدري: الرحلة المغربية، ص ١٨٥.

(٨) ابن جبير: الرحلة، ص ٩٧، البلوي: تاج المفرق، ج ١/ص ٣٠٧.

أما معاملات مكة المالية^(١)، فكانت تجرى كمصر والشام بالدنانير والدرهم النقرة^(٢)، وتنوعت العملات فيها طوال العصر المملوكي، ومنها الدراهم الكاملية^(٣)، والدراهم المسعودية^(٤)، وفي بداية القرن التاسع الهجري، استعملت في مكة عملات أخرى منها الدراهم المؤيدية^(٥)، والدنانير الأفرنتية^(٦)، والدنانير الأفلورية^(٧).

(١) أنظر لمزيد من التفصيل، أنظر: الزهراني، ضيف الله بن يحيى: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة ٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠م - ١٥١٧م، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٨٠ - ص ٢٨١، والدراهم: هي ما يكون ثلثاها فضة وثلثها نحاس، تسك بدار الضرب السلطانية، ويكون منها دراهم صحاح، وقراضات مكسرة والعبرة في وزنها بالدرهم وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً، الكرمل، الأب انستاس ماري: النقود العربية وعلم النميات، رسائل في النقود للبلاذري والمقرزي والذهبي، (بيروت، لبنان، بدون ت)، ص ١١٣.

(٣) الدراهم الكاملية، تنسب إلى السلطان الملك الكامل الأيوبي، (٦١٥هـ / ١٢١٨م - ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م)، وهو يتكون من ثلثي فضة وثلث نحاس، وكان من المعاملات الرئيسية بمكة (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٨٠).

(٤) الدراهم المسعودية: تنسب إلى ملك اليمن الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد الأيوبي، (٦١٢هـ / ١٢١٥م - ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، وهي من فضة خالصة، مربع الشكل، ويعادل في المعاملة المالية ثلث الدرهم الكامل، وقد استمر التعامل بها في مكة حتى نهاية العصر المملوكي، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٧/ص ٤٩٥، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٨٠، العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٢٢، ورقة ٨٨، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة، ص ١٠٦).

(٥) الدراهم المؤيدية، تنسب إلى السلطان المملوكي المؤيد سيف الدين أبو النصر شيخ، (٨١٥هـ / ١٤١٢م - ٨٢٤هـ / ١٤٢١م)، أنظر النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٨٨.

(٦) الدينار الإفرنتي: عملة بندقية، أطلق عليها في أوربا لفظ دوكلات، وعرفت في الشرق باسم (بندقي أو إفرنتي)، وقد تعاملت بها مكة من سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م، (المقرزي: السلوك، ج ١/٢: ص ٢٥٣، الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٣٩ - ص ٤٤٠، الزهراني: أسعار المواد الغذائية، ص ١٠٦).

(٧) الديناري الأفلوري: نسبة إلى فلورنسا بإيطاليا، وهو من النقود الذهبية التي تجلب من بلاد الإفرنج، وعلى أحد وجهيه صورة إنسان في دائرة مكتوبة بقلمهم، وفي الوجه الآخر صورتان في دائرة مكتوبة، ولم يكن يعرف هذا الصنف قديماً مما يتعامل به الناس، وإنما حدث في القاهرة في حدود سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م حتى صار نقداً رائجاً، (المقرزي: السلوك، ج ١/٤: ص ٣٠٥)، وقد تعاملت به مكّة في بداية القرن التاسع الهجري، أنظر النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٣٥، ص ٥٨٨.

الأشرفية^(١)، والمحلوق^(٢) الذي راج استعماله من أواخر القرن التاسع الهجري^(٣)، إلى بداية القرن العاشر الهجري^(٤) وكان مكيا لها المد^(٥) والمن^(٦).

٤ - الأوقاف وصدقات السلاطين والأمراء وغيرهم من المحسنين: وهذا المورد لانجده في اقتصاد أي دولة من الدول أو أمانة من الإمارات غير مكة والمدينة لوجود الأماكن المقدسة بهما.

(١) الدينار الأشرفي: ينسب إلى السلطان الملك الأشرف برسباي، (٨٢٥هـ/١٤٢١م - ٨٤١هـ/١٤٢٧م)، وقد ضرب سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، محل العملة الإفرتية، (المقرزي: ج ١/٢: ص ٥٣٥، وقد تعاملت به مكة حتى نهاية العصر المملوكي، أنظر العز بن فهد: بلوغ القرى، الوراق: ٥٢، ٨٨، ١٢٩ب، ٢٠١ب).

(٢) المحلق: نسبة إلى أنه أصبح له حلق، وجمعه محلقات، وهو نوع من النقود الفضية التي ضربت في مكة، وهو في اصطلاح بعض العامة الدراهم والدنانير، (النجم ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٤/ص ٤٩٩، العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢/ص ٥٣٩ - الهامش، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة، ص ١١).

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤/ص ٤٩٩.

(٤) العز ابن فهد: بلوغ القرى، الوراق، ٥٢ب، ١٦٢، ٧٢ب، ١٢٩ب.

(٥) المد: بالضم وجمعه أمداد ومداد ومدد، وهو نوع من المكاييل التي كانت شائعة الإستعمال في الحجاز.. وقال ابن الرقعة: «المد يتركب من الرطل، ومعنى ذلك أن الرطل داخل في تقدير وزن ما يتسعه حجم المد من المكيالات» (ابن الرقعة، أبي العباس نجم الدين: الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، تحقيق، محمد أحمد إسماعيل الخاروف، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (دمشق، دار الفكر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ٥٦.

(٦) المن: وحدة من وحدات الوزن القديمة بمصر التي استخدمها اليهود والعبرانيون، ويختلف تقديره حسب وجه استعماله في الدولة الإسلامية، وقد حدده الفاسي بإثنى عشر أوقية (٥، ٢) رطل مصري (مبارك، علي باشا: الميزان في الأقيسة والميزان، ص ٢٨، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة، ص ١١٠، الفاسي، العقد الثمين، ج ١/ص ٢٠٨ - ص ٢٠٩).

وقد مرّت مكة طوال العصر المملوكي بسنوات من الرخاء والشدة، فحينما يكون الأمن والاستقرار مستتباً فيها، بالإضافة إلى هطول الأمطار، وقدم الهبات والصدقات من السلاطين والأمراء وغيرهم، وتأمين الطرق في البر والبحر، تنعم مكة وأهلها والحجاج بالهدوء والأمن، والرخاء وترخص الأسعار فيها. وحينما تمر مكة بسنوات من القحط والمجاعة والغلاء يكون مرد ذلك إما بسبب السيول والأوبئة، أو انقطاع الحاج ومبرات السلاطين والأمراء، وانعدام الأمن فيها من اندلاع الفتن ونهب التجار والقوافل، وزيادة المكس عن عادته.

وطبيعة البحث لا تسمح بتتبع واستطرد جميع ما ذكرته المصادر من المعلومات عن تلك السنوات واستقصاء الحديث عنها، ومع ذلك فلعل من المناسب الإشارة إلى نماذج من ذلك لما لها من تأثير في الحياة الإقتصادية، انعكس أثره على الحياة العلمية والنشاط الفكري عامة.

ففي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م حجت من الشام عمّة صاحب ماردين^(١)، وكان لها محمل كبير وسبل وتصدقت بمال كثير، وانتفع بها الحاج وأهل الحرمين وأميراهما.^(٢)

وفي سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م كان الرخاء كثيراً بمكة، حيث بيعت غرارة القمح بثمانين درهماً، وغرارة^(٣) الشعير بخمسين درهماً، إلا أن الماء كان قليلاً... فأغاثهم الله بمطر

(١) ماردين : قلعة مشهورة محصنة ، تشرف على ديسر ، بها اسواق كثيرة وخانات ومدارس ، فتحها المسلمون في أيام الخليفة عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ / ص ٣٩ ، وصاحب ماردين هو الملك السعيد شمس الدين داود بن الملك المظفر فخرالدين ألبى أرسلان بن الملك السعيد شمس الدين قرا أرسلان بن أرتق الأرتقي . (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨/ص ٥٨).

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٢٧.

(٣) الغرارة: مكبال لأهل الشام، يتألف من ١٢ كيبلاً أو ٧٢ مدأ، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٨١)، وقدرها المقرئ بالنسبة لأهل الحجاز «بسبع وبيات مصرية» ، (السلوك، ج ١/٣: ص ١٠)، وقدرها الفاسي بالنسبة لأهل مكة بأنها ٢,٥ غرارة مكية، (شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٣٤)، وجاء في المعجم الوسيط، الغرارة وعاء من الخيش يوضع فيه القمح وغيره، وهو أكبر من الجوالق وجمعها الغرائر، (المعجم الوسيط، ج ٢/ص ٦٧٢).

عظيم رووا منه. (١) وفي سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م «أرسل السلطان المملوكي الناصر حسن عسكرياً بمكة، انصلح بهم حالها وارتفع عنها الجور وانتشر العدل بها، واسقط المكس من المأكولات، وجلبت الأقوات فرخصت فيها الأسعار». (٢)

وفي سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م كان بمكة غلاء شديد، وعمدت الحبوب والتمور وغيرها من المأكولات حتى أكل بعض الناس لحم الحمير الميتة، وهلك كثير من الناس جوعاً، ونزح أكثر أهلها عنها، ثم فرج الله عن الناس بصدقة بعث بها الأمير يلبغا الخاصكي (ت ٧٦٨هـ - ١٣٦٦م) (٣)، حيث جهز كثيراً من القمح وواصل إرساله ونجدته لأهل مكة، فعم النفع بها، وتعرف هذه السنة عند المكيين بسنة أم جرب. (٤)

وفي سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م أرسل الأمير جركس الخليلي (٥) قمحاً كثيراً لأهل الحرمين، ليعمل منه في كل يوم بمكة خمسمائة رغيف، وبالمدينة كذلك، تفرق على الفقراء وغيرهم (٦)، وفي هذه السنة كانت مكة رخيصة الأسعار. (٧)

(١) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٦٥.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١/٣: ص ٤٨، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٧٦ - ص ٢٧٧.

(٣) من كبار دولة أستاذه السلطان الناصر حسن بن قلاوون، وأنتهت إليه الرياسة في دولة الأشرف شعبان ولقب نظام الملك وصار له الأمر والنهي، وكان صاحب الفضل في رد غروة الأفرنج عن الأسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤/ص ٤٣٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١/ص ٣٦ - ص ٤٠، الدليل الشافي، ج ٢/ص ٩٧٣، ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٢/ص ٧٩٣).

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ٢٠٩، شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٣٧، المقرئزي: السلوك، ج ١/٣: ص ٩٧، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٠٢.

(٥) جركس بن عبدالله الخليلي: صاحب الخان المشهور بالقاهرة، مات قتيلاً سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م، (المقرئزي: السلوك، ج ٢/٣: ص ٦٨٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١/ص ٣٨٣، الدليل الشافي، ج ١/ص ٢٣٣).

(٦) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٣: ص ٥٣٦، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٤٨.

(٧) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٣: ص ٥٣٨، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٤٩.

وفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م أرسل الملك المؤيد صاحب مصر صدقة من القمح، وتولى تفريقها الأمير تغري برمش التركماني^(١) بمكة. (٢)

ومن سنوات الكوارث، سنة ٦٥١هـ/١٢٥٤م حيث كثر الحجاج في تلك السنة، وحصل للناس في أيام الموسم عطش شديد، واشتد الغلاء بسبب قلة المياه. (٣)

وفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م كان بمكة فناء عظيم وبلغ عدد الموتى من أول رجب إلى السابع والعشرين منه ألف جنازة، كما نهب في تلك السنة حجاج المغرب. (٤)

وما وقع من قسحط في سنوات ٦٧٦هـ/١٢٧٧م^(٥) و ٦٨٣هـ/١٢٨٤م^(٦) و ٦٩٥هـ/١٢٩٥م^(٧) بسبب ندرة الأمطار، فاشتد الغلاء بمكة وبلغ مبلغاً لم يسمع بمثله منذ دهر طويل. (٨)

(١) تغري برمش بن يوسف بن المحب التركماني القاهري، قرينه المؤيد وأكرمه، وكان يقوم بتوزيع الصدقات التي تصله من السلاطين، وقد قدم مكة في سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م، وأقام بها إلى أن مات، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ص ٣١ - ص ٣٢).

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ٣٨٣، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٥٢١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/ص ٣٠، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٧٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ٢١٠، شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٣٣، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٠٢.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٠٨.

(٦) ن. م. س. ج ٣/ص ١١٦.

(٧) المقرئ: إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، بدون ت)، ص ٧١، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٢٨.

(٨) المقرئ: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٧١.

وفي سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م استنجد أمير مكة عطيفة بالسلطان الناصر وأخبره
بقحط مكة لعدم نزول الأمطار، فأرسل إليهم القمح وتصدق به فرخصت الأسعار.^(١)

وفي سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م منع الجلاب^(٢) من الوصول إلى مكة، وحصل في هذه
السنة غلاء عظيم في أيام الحج، بسبب كثرة الحجاج الشاميين، كما حصل للحجاج في
هذه السنة مشقات كثيرة من قلة الماء وغلو الأسعار، وهلك كثير من المشاة.^(٣)

وفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م عمّ الوباء جميع مدن الحجاز وقراها، ووقع غلاء شديد
بمكة.^(٤) وهذا الوباء كان يشمل أيضاً جميع البلدان الواقعة على البحر المتوسط، وقد
أفاضت كتب التاريخ بأخباره.^(٥)

وفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م اشتد الغلاء بمكة، فلما قدمت الرجبية^(٦)، انخفضت
قليلاً، ثم ارتفعت مع قدوم الحجاج، وعظمت المشقة في الرجعة إلى القاهرة من غلاء
الأسعار، وحصل بالحرمين وغيرها من بلاد الحجاز في آخر السنة قحط عظيم، ومات
كثير من الأشراف وغيرهم جوعاً، وأكلت الجلود.^(٧)

(١) المقرئ: السلوك، ج ١/٢: ص ٢٣٨، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ١٧٦.

(٢) الجلاب: مفردها جلبة، وهي نوع من السفن الصغيرة المخيطة التي لاتستعمل في صنعها
المسامير، وتستعمل في البحر الأحمر، وهي مراكب للتجارة بين عدن والحجاز، (ماهر، سعاد:
البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، (القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م)، ص ٣٣٨،
وأنظر كذلك ص ١٩٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ص ٤١٦ - ص ٤١٧، المقرئ: السلوك، ج ٣/٢: ٦٦٠، النجم بن
فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٢٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٣٦، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٢٣٨.

(٥) المقرئ: السلوك، ج ٢/٣: ص ٧٥٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠/ص ١٩٩.

(٦) الرجبية: المقصود بها القادمين لأداء عمرة رجب.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٣٧.

ومن حوادث سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م وقوع الغلاء بمكة، كما حلّ بها وباء، بلغ الموتى فيه أربعين نفراً في بعض الأيام^(١)، وما حصل فيها من فتنة بين الأشراف حيث انعدم الأمن ونهبت الأموال، ونهب حجاج اليمن وحجاج مصر نهباً فاحشاً^(٢).

على أن مكة لم تعرف غلاءً أفظع من الذي حصل في سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م فقد حصل بمكة قحط عظيم، وفقدت جميع المأكولات، فأكل الناس القبط والجردان حتى انعدمت فأقبلوا على أكل بعضهم وكثر الخوف حتى امتنع الكثير من البروز إلى ظاهر مكة خشية أن يؤكل^(٣).

أما المدينة المنورة فهي أفضل من الناحية الزراعية من مكة، وتستطيع أن تؤمن أقواتها^(٤)، خاصة من التمور التي تعد مورداً مهماً لأهلها، وأن تستغني عن أن تجلب من خارجها كثيراً من الضروريات، وكان أهلها يمارسون إلى جانب الزراعة التجارة، حيث يتجرون مع سكان البادية المحيطة بالمدينة، كما يتجرون مع قوافل الحجاج والتجار الذين يفدون من مكة^(٥)، وهي لا تختلف عن مكة من حيث موردها المالي عن طريق إقامة الحجاج والزوار بها.

أما مصادرها الخارجية فإنها كانت تأتيهم عن طريق البحر بميناء ينبع^(٦)، بالإضافة إلى ما يصلها مع حجاج مصر والشام من المنسوجات وغيرها من السلع، كما أن

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ٢١٠، شفاء الغرام، ج ٢/ص ٤٣٧، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٧٩.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦/ص ٢٠٩.

(٣) المقرئ: السلوك، ج ١/٤: ص ٥٠٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ص ٢٩٤.

(٥) ن. م. س. ج ٤/ص ٣٠٦.

(٦) الجاسر: مقتطفات من رحلة العياشي، (ماء الموائد)، الطبعة الأولى، (الرياض، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)، ص ٣٥.

السلاطين والأمراء لم يهملوا هذه المدينة في صدقاتهم وأعطياتهم وإسقاط المكوس والضرائب، بل ربما عملوا فيها من الخيرات أكثر مما عملوه بمكة. (١)

ففي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م أوقف السلطان الملك الصالح إسماعيل على خدام المسجد النبوي ومنبر المسجد أوقافاً غير أوقاف أبيه بمصر. (٢)

كما قام الظاهر برقوق بإرسال القمح عدة سنين لمكافحة الغلاء والقحط، بواسطة الأمير جركس الخليلي، وتمّ تفريقها على أهل الحرمين. (٣)

كما جرت على يدي تغري برمش التركماني كثير من الصدقات التي عمّت الحرم المدني الشريف منها صدقة من القمح سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وصدقة أخرى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م. (٤)

وقام السلطان قايتباي أثناء قدومه للحج سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م بإسقاط المكوس عن أهل المدينة وعوض أميرها ألف أردب (٥) من القمح، وفرق الذهب على فقرائها وفقهائها وعلمائها. (٦) وأوقف قرى في مصر يحمل ريعها إلى المدينة. (٧)

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٨١.

(٢) المقرئ: السلوك، ج ٣/٢: ص ٦٣٣، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٦٣.

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٣٤٨، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٣٦٧.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٣٨٧.

(٥) الأردب: من مكاييل المسلمين، ساد استخدامه في مصر والحجاز، وقدره ابن الرفعة بست وبيات كل وبة أربعة أرباع، فجملته أربعة وعشرون ربعاً والربع أكثر من الصاع، (الإيضاح والتبيان، ص ٧٣) ..

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٣/ص ٤١١، السمهودي: وفاء الوفا، ج ٢/ص ٦٤٤، ص ٧١٤، النهر والي: الأعلام، ص ٣٣٢.

(٧) السمهودي: وفاء الوفا، ج ٢/ص ٦٤٤.

ولما حج ابن السلطان الأشرف قانصوه الغوري وزوجته سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٥م تصدقا بمال عظيم وفعلا من البر والمعروف والإحسان في الحرمين الشريفين ما يجلب عن الوصف. (١)

وكانت حال المدينة الإقتصادية عموماً أحسن من حال مكة، لقلة عدد سكانها وكثرة عيونها وآبارها، ولقربها من القرى الزراعية، فكثير محصولها من التمر، واستفادت كثيراً من عرب البادية الذين يحملون إليها السمن والعسل والألبان وغير ذلك من المأكولات.

أما معاملاتها المالية فهي كمعاملات مصر ومكة بالدنانير والدراهم، ومكيالها المن والمد وقياس قماشها بالذراع الشامي. (٢)

أما جدة فقد كان لها دور مهم في الحركة التجارية في العصر المملوكي، حيث كانت بوابة الحجاز للوافدين إليها من مصر وأفريقيا والمغرب وبلاد السودان. (٣) وكانت تتأثر كثيراً حينما تتدهور الأوضاع السياسية بمكة، فيُنهب التجار والجلاب وتصادر جميع أموالهم. (٤)

وقد ازداد نصيب جدة من التجارة الدولية في بداية القرن التاسع الهجري، وازدادت المبالغ التي كان يجبيها الأمراء من المكوس، حتى صارت مورداً مالياً مهماً لهم. (٥)

(١) العبدروسي: النور السافر، ص ٩٧ - ص ٩٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤/ ص ٣٠٦.

(٣) مورتييل، ريتشارد: الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، (الرياض، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ص ٧٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٧/ ص ١٢٣، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ ص ٢١١، ص ٢٦٨، ص ٢٩٤، ص ٣٦١.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ ص ٩٥، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ ص ٤٢٠.

ويدلنا على ذلك قول ابن شاهين الظاهري: «وهي ميناء مكة المشرفة ترد إليها المراكب بالبضائع، وهي من أعظم الموانيء، وربما يردّها في كل سنة نيف عن مائة مركب، من جملة ذلك مركب بسبعة قلع وتؤخذ الموجبات والرسوم تحمل إلى صاحب مكة، وكان الملك الأشرف برسباني يشاركه في أخذ نصيب من ذلك، ويقال أن متحصلها مئتا ألف دينار في كل سنة، وربما يزيد وينقص»^(١).

لذلك عمد المماليك إلى جعل الميناء تحت إشرافهم مباشرة، وجعلوا نظارته وظيفة سلطانية، ولتأكيد سلطان ناظر جدة. وضع تحت تصرفه كتيبة من جند المماليك تشد أزره في حال تعرض جدة لهجوم من قبل أشرف مكة، وقد أدى ذلك إلى ازدهار جدة، وأصبح يقصدها عدد كبير من السفن بعد أن كان النشاط التجاري وقفاً على عدن^(٢). وصارت الأموال تحمل إلى مصر^(٣). ويرجع هذا الإزدهار الإقتصادي إلى حسن المعاملة التي كان يلقاها التجار في جدة على عكس ما كانوا يجدونه في عدن^(٤)، وكذلك وقوف سلاطين المماليك في وجه ملوك الرسولين الذين أرادوا منع وصول السفن إلى جدة، ومضاعفة الضرائب المفروضة على البضائع القادمة من عدن^(٥)، فقام المماليك بمنع السفن

(١) زبدة كشف الممالك، ص ١٤.

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٦٢٠ - ص ٦٢١.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٤: ص ٧٠٧، الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٤، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٦٢١، وقد انتقد تلك السياسة الإقتصادية المقرئزي بقوله: «فجاء للناس ما لا عهد لهم بمثله، فإن العادة لم تزل من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة إلى مكة لتفرق في أشرفها ومجاوريتها، فانعكست الحقائق، وصار المال يحمل من مكة، ويلزم أشرفها بحمله إلى القاهرة» (السلوك، ج ٢/٤: ص ٧٠٨).

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٤: ص ٦٨١، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٦٢١.

(٥) المقرئزي: السلوك، ج ٢/٤: ص ٦٨١، مورتيل: الحياة السياسية والإقتصادية في العصر المملوكي، ص ١٨٢.

اليمنية من الرسو في جدة وينبع، ومصادرة البضائع القادمة من اليمن^(١)، وعاملت
التجار الهنود والصينيين وغيرهم أحسن معاملة.^(٢)

إلا أن هذا الإزدهار لم يدم طويلاً بسبب محاولة السلطان برسباي فرض رسوم
إضافية على البضائع، علاوة على ضريبة العشر^(٣)، بالإضافة إلى إجبار التجار بالقدوم
إلى القاهرة مع ركب الحاج المصري لتؤخذ منهم المكوس^(٤)، واتخذ سياسة احتكارية في
بيع السلع^(٥)، مما أدى إلى اتجاه التجار مرة أخرى إلى ميناء عدن.

وفي عهد السلطان جقمق عاد الهدوء ونشطت حركة التجارة بها، خاصة حينما
تولى نيابة جدة جانبك الظاهري الخاصكي^(٦)، الذي طبق سياسة حاسمة تجاه التجار بمكة
وجدة.^(٧)

(١) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤/ص ٨٠.

(٢) فهمي: طرق التجارة الدولية، ص ١٣٩.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٤/٢: ص ٩٢٩.

(٤) ن. م. س. ج ٤/٢: ص ٧٥٤ - ص ٧٥٥، النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤/ص ٤٣.

(٥) المقرئزي: السلوك، ج ٤/٢: ص ٧٩١.

(٦) هو الأمير سيف الدين جانبك بن عبدالله الظاهري الدوادار الكبير الخاصكي المعروف بنائب جدة،

له كثير من المآثر بمصر والحجاز، قتل بيد الجلاب سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م، (ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة، ج ١٦/ص ٣٢٠ - ص ٣٢٤، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ص ٥٧ - ص ٥٩).

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤/ص ٢٦٦ - ص ٢٦٧.

ولم يكن النواب الذين تولوا أمر جدة من بعده، يتميزون بحنكة وحسن تدبير هذا النائب، مما ترتب عليه إعراض عدد كبير من تجار الهند عن السفر إلى جدة، وتوجيه نشاطهم إلى عدن.^(١)

وأخيراً أدت المنازعات بين أشراف مكة للوصول إلى الأمانة إلى تخريب العمران وتدميره بجدة^(٢)، بالإضافة إلى تعسف النواب في جباية العشور، والتهديد البرتغالي للتجارة الإسلامية^(٣)، واكتشاف طريق الرجاء الصالح - كل ذلك أدى إلى نهاية جدة كثغر تجاري.^(٤)

أما ينبع فهي الميناء الثاني بعد جدة على البحر الأحمر، والمحطة البرية والبحرية لحجاج مصر والشام، خصوصاً أولئك الذين يريدون مسجد رسول الله ﷺ قبل أو بعد حجهم إلى البيت الحرام بمكة، فصارت سوقاً مهماً لبيع وشراء مختلف السلع، حتى بلغ من ازدهارها أن قدرّت عائداتها من التجارة بثلاثين ألف دينار سنوياً.^(٥)

ويعزى انتعاش التجارة في ينبع إلى انعدام الأمن وسوء المعاملة التي كان يلقاها أصحاب السفن التجارية عند رسوهم بجدة الأمر الذي دعاهم إلى البحث عن ميناء آخر، وقد وجدوا في ينبع ظلتهم المنشودة^(٦)، غير أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما أن احتلت جدة مكانتها الأولى.

(١) مورتيل: الحياة السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص ١٨٩.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٢٩ ب - ورقة ١٣٠ أ.

(٣) مورتيل: الحياة السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص ١٩٢.

(٤) خفاجي: موقف مصر من الحجاز، ص ١٢٧.

(٥) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٦.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ ص ٣٨٩، ص ٤٠١.

إلا أنها كذلك لم تنج من الفتن والقلال التي أحدثت مجاعات وويلات وخراباً عطل هذا الميناء، وقطع موارده التجارية، كما لاحظنا في الجانب السياسي عنها.

أما الطائف فلاشك أن تنوع المناخ وخصوبة الأرض بها، أدى إلى انتشار الزراعة وتنوع المحاصيل الزراعية في هذه المدينة، وبالتالي أصبحت هذه الحرفة من الحرف التي تميّزت بها الطائف على سائر مدن الحجاز.

ويعزو ابن جبير السبب في عمران الطائف وكثرة مزارعها إلى هجرة المغاربة ذوي البصارة والفلاحة والزراعة، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات^(١)، وقد أشار ياقوت بكل وضوح إلى امتهان سكان الطائف حرفة أخرى إلى جانب الزراعة، وهي الدباغة، حيث قال: «والوادي الذي بين طائف ثقيف ووهط^(٢) تجري فيه مياه المدايح التي يدبغ فيها الأديم، ويصرع الطيور رائحتها إذا مرت بها». ^(٣)

وقد أوردت كثير من المصادر القديمة والمعاصرة لفترة البحث^(٤)، الأهمية الاقتصادية لهذه المدينة بالنسبة إلى مكة، حيث كانت الممول الرئيسي الأول لمكة في الفواكه والخضروات والحيوانات ومنتجاتها والعسل وغيرها من السلع، ولكن انقطاع الأمطار عنها في بعض السنين، هذا بالإضافة إلى انتشار الأوبئة والأمراض بها كان له انعكاسه وتأثيره في غلاء الأسعار بمكة في تلك السنين.^(٥)

كما ساعد على النشاط الاقتصادي بهذه المدينة، اتخاذ كثير من أهالي مكة من المجاورين والعلماء والأعيان وأصحاب الأموال - الطائف - مصيفاً لهم، وقاموا بشراء كثير من الأراضي والبساتين لتوقف على الأعمال الخيرية بمكة.

(١) الرحلة، ص ١١١، هذا وإن كانت الطائف معروفة منذ القدم بانتاجها الزراعي الوفير قبل قدوم المغاربة.

(٢) وَهْط: بفتح أوله وسكون ثانيه، وطاء مهملة، المكان المظمن المستوي ينبت العضاء والسمر والطلع، وهو قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج، (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥/ص ٣٨٦).

(٣) معجم البلدان، ج ٤/ص ٩.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ٢٧٤، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٩، ابن جبير: الرحلة ص ١٢٢، ياقوت، معجم البلدان، ج ٤/ص ٨ - ص ٩، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٦٠.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الوري، ج ٣/ص ٩٠، ص ١٠٢، ص ١٠٨.

الفهرس

صفحة

الموضوع

الجزء الاول ويشمل :

المقدمة ٣

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ١٠

التمهيد ٢٣

أولاً: تحديد الحجاز وأهميته

أ - تحديد الحجاز ٢٤

ب - أهميته ٣٠

ثانياً: الحياة العامة في الحجاز

أ - الحياة السياسية ٣٨

ب - الحياة الاجتماعية ٥٦

ج - الحياة الاقتصادية ٦٥

الفصل الأول: مظاهر الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة ٨٢

أولاً : إهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية ٨٣

ثانياً: إهتمام بعض سلاطين وأمراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز ١١١

ثالثاً: دور العلماء والعلماء والأعيان والعامة في تنشيط الحركة العلمية ١٤١

أ - المجاورون ١٤١

ب - الأسر العلمية في الحجاز ودورها في تنشيط الحركة العلمية ١٦٣

ج - دور العلماء في المدن الحجازية ٢١٩

د - دور المرأة ومكانتها في الحركة العلمية بالحجاز ٢٣٢

رابعاً: العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى (الرحلات العلمية) ٢٥٢

خامساً: الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية ٢٧٦

سادساً: الكتب والمكتبات ٢٨٦

أ - المكتبات الخاصة ٢٨٧

ب - المكتبات العامة ٢٩٤

الفهرس

صفحة

الموضوع

الجزء الثاني ويشمل :

٣٠٧	الفصل الثاني، مراكز التعليم
٣٠٨	أولاً : الكتابات
٣٢٢	ثانياً : المساجد
٣٣١	١ - الدروس العامة في الحرمين الشريفين
٣٥٢	٢ - الدروس المقررة في الحرمين الشريفين
٣٦٦	ثالثاً : دور المدارس
٤١٥	رابعاً : دور الأريطة
٤٤١	الفصل الثالث، العلماء والإنتاج العلمي
٤٤١	(دراسة للإنتاج العلمي والأدبي في الحجاز خلال العصر المملوكي)
٤٤٤	أولاً : الدراسات الشرعية
٤٩٦	ثانياً : الدراسات الأدبية واللغوية
٥٣٥	ثالثاً : الدراسات الإجتماعية
٥٦٢	رابعاً : الدراسات العقلية والتطبيقية
٥٨٣	الخاتمة
٥٨٦	الملاحق
٦٠٠	المصادر والمراجع
	فهرس المحتويات